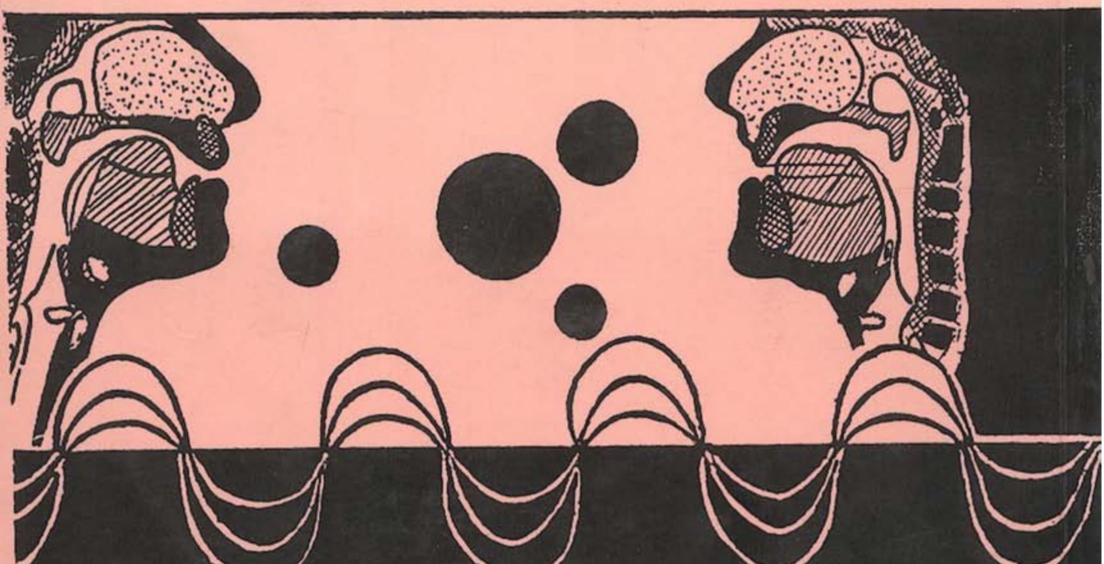
عبد العزيز حليلي

اللسانيات العامة واللسانيات العربية

تعاريف • أصوات



منشورات دراسات . سال

عبد العزيز حليلي

اللسانيات العامّة واللسانيات العربيّة

تعاريف • أصوات

منشورات دراسات . سال

بسم الله الرحمن الرحيم

المؤلــــف : الدكتور عبد العزيز حليلي.

الكتــــاب : اللسانيات العامة واللسانيات العربية : تعاريف ـــ أصوات.

الطبعـــة : الأولى 1991

منشورات : مجلة دراسات سيميائية أدبية لسانية ـــ دراسات «سال».

الغـــلاف : محمد الريحاني.

الخطـــوط : زمامة محمد.

الإيـــداع : 854 - 1991.

المطبعـــة : النجاح الجديدة ـــ الدار البيضاء.

تقديــــــم

يمكن ترتيب مواد هذا الكتاب في مجموعتين كبيرتين تتألف الأولى من الدراسات الخاصة ببعض قضايا اللسانيات العامة. قدمت فيها أهم مبادئ ومفاهيم اللسانيات البنيوية اعتمادا على دروس دوسوسير وعلى أعمال بنيويين آخرين. واستعرضت فيها أهم أسس علمي الأصوات النطقي والصوتيات الوظيفية مهتديا بأعمال رواد مدرسة ابراك الفونلوجية ومستعينا بمن طوروا نتائج هذه الأعمال أو عرّفوا بها. كما تعرضت لأهم قضايا البحث اللهجي ووضحت فائدة هذا الصنف من الدراسات وذكرت علاقته بالعلوم المجاورة. والغرض من مواضيع هذه المجموعة التعريف بأسس اللسانيات العامة ووصف بعض أدواتها الإجرائية وتوضيح أهم أهدافها، وكذا المساهمة في تطوير وإغناء أساليب بحثها.

وتتألف المجموعة الثانية من مواد هذا الكتاب من الدراسات الخاصة ببعض قضايا اللسانيات العربية. ناقشت ضمنها موضوعي نشأة النحو وجمع وتقعيد العربية عند نحاة هذه اللغة المتقدمين كما وصفت النظامين الصوتيين الفصيح والدارج وعقدت مقارنة مختصرة بين هذين المتغيرين العربيين حاولت أن أفسّر بها بعض مظاهر نظاميهما الصوتيين. كما قمت بوصف البنية المقطعية في الفصحى انطلاقا من مناقشة ما قاله العرب المحدثون في هذا الموضوع.

وبعض مواد هذا الكتاب أبحاث متخصصة والبعض الآخر محاضرات ألقيت بكلية الآداب والعُلوم الإنسانية بفاس على طلبة الأدب العربي واللسانيات العربية.

وقد اجتهدت ـــ قدر المستطاع ـــ ليكون المصطلح العربي المستعمل في هذا الكتاب من الصنف المتداول في الجامعات المغربية، الدارج على ألسنة المهتمين والمثقفين. وزيادة في الضبط وتجنباً للخلط والغموض، وضعت بجانب المصطلح العربي مقابله الفرنسي كلما شعرت بضرورة هذا التدقيق، خاصة عندما يكون المصطلح

العربي من اقتراحي أو عندما لا يكون محل إجماع. وهكذا ذكرت أحيانا كل الألفاظ العربية المقترحة لترجمة نفس اللفظ الأجنبي. وبالمناسبة لابد من الإشارة إلى أن مشكل ضبط المصطلح لا تختص بالمعاناة منه اللغة العربية وحسب بل تواجهه كثير من اللغات الإنسانية في مرحلة نشأة العلوم الجديدة وعند كثرة الإنتاج وتعدد المشارب والمنطلقات النظرية والتطبيقية. فهذا بيير كيرو يقول عن الفرنسية مثلا، بمناسبة الحديث عن المصطلح السيميولوجي : «... إن أول مشكل يواجهنا هو مشكل تحديد مفهوم الرمز. إنه مفهوم معقد جدا لأنه يشمل مصطلحات من مثل : دليل (signe)، ورمز (symbole)، وإمارة (indice)، وإيماءة (signal)، وعلامة (insigne)، ولافتة (enseigne)، وشعار (emblème)، وإستعارة (allégorie)، وأثر (marque)... والمقلق حقا هو أن المعاجم والمؤلفين المختصين (اللسانيين والفلاسفة والمناطقة والفقهاء إلخ) يستعملون هذه الألفاظ بمعان متقاربة أحيانا وبمعان متناقضة أحيانا أخرى... هناك خلط في نفس الكلمة (بحسب المؤلفين وعند نفس المؤلف أحيانا) بين نوعين من الرموز متناقضين كلية باعتبار أنهما اعتباطيان أو معللان»[1]. ولاشك أن السر في وجود هذا المشكل في العربية وفي غيرها من اللغات هو حداثة علم اللسانيات بالمقارنة مع العلوم المجاورة كالنحو والبلاغة، وهو عدم وجود معجم وقع عليه الإجماع (كما وقع الإجماع في اللغة على «لسان العرب» لابن منظور مثلا) يرجع إليه الدارسون كلما اختلفوا في أمر مصطلح ما أو شكل عَليهم أمر تحديده أو إيجاد المقابل العربي له. فما نشر حتى الآن في هذا الباب غير جامع شامل ولا يحظى بإجماع كل اللسانيين العرب. يجب العمل إذن على وَضع هذا المعجم «السلطة» في أقرب وقت والسهر على أن يساير المستجد بانتظام. وما يهم في المصطلح — على كل حال — هو ضبط تعريفه وتجنب التشابه الذي قد يوقع في الخلط، واحترام قواعد اللغة في وضعه أوْ نقله وهذا ما حاولت القيام به جهد الإمكان.

وبالإضافة إلى المراجع التي أحلت عليها في صلب هذا الكتاب وضعت في آخره لائحة ببعض الدراسات اللسانية المغربية والعربية التي يمكن أن تفيد في التعريف بقضايا اللسانيات العامة ولسانيات اللغة العربية. وأضَفْتُ إليها أسماء بعض المؤلفات

(1) P. Guireaud : «La sémiologie, l'univers des signes» in Comprendre la linguistique, Marabout U., Paris, 1975.

الأجنبية. وضعت هذه اللائحة على سبيل الاستئناس فقط، وتعمدت في وضعها اختيار ذكر ما هو مختصر ومركز يغلب عليه الطابع التفسيري والتعليمي بغية إخبار المثقفين المهتمين والطلبة الجامعيين بما يمكن الاستعانة به في فهم مواضيع هذا الكتاب وتعميق النظر في قضايا اللسانيات الحديثة.

ويرجع الفضل في صدور هذا الكتاب إلى الأساتذة : د. عبد العلي الودغيري الذي شجعني على نشره ود. محمد العمري ود. حميد لحمداني اللذين أشرفا على طبعه وتوزيعه وذ. محمد بوطاهر الذي صحح أخطاءه المطبعية فإلى هؤلاء الإخوة وإلى كل الزملاء والطلبة الذين شاركوا بأسئلتهم وبمناقشاتهم البناءة في إغناء مواد هذا الكتاب أتوجه بالشكر الصادق. وبالله التوفيق والسلام.

المؤلف

91.4.20

تعاريف وقضايا عامة

أسس اللسانيات البنيوية

□ البنيوية : تعريف وتحديد

عرفت أوربا مع بداية الخمسينات من القرن العشرين — رجة كبرى في الميدان الثقافي احدثها منهج جديد تهافتت على الأخذ منه جل العلوم الانسانية. فحاولت الاستفادة من أسسه المعرفية ومن أساليب وأدوات بحثه وقواعده الخاصة في تطوير دراستها وإعطائها بعدا متميزا يقربها من العلوم الدقيقة كالرياضيات والفيزياء والكيمياء، هذا المنهج الجديد هو البنيوية. لقد أراد عالم النفس ان يصير بنيويا في دراسته وتحليله للظواهر والوقائع النفسية، ورغب عالم الاجتماع ان يكون بنيويا في معالجته للظواهر الاجتماعية، وحاول ليفي ستراوس أن يضع الأسس البنيوية للانتربلوجيا، وكذلك فعل الاقتصادي والناقد الأدبي وعالم التربية وهلم جرّاً. واكتسح هذا المنهج الجامعات الأوروبية والأميريكية وبدا منذ الستينيات يقرع بقوة أبواب الجامعات العربية في المشرق والمغرب. فما المراد بالمنهج البنيوي ؟ الجواب عن هذا السؤال يتلخص في التعريف بثلاثة مصطلحات أساسية هي :

— **أولا المنهج**[1] : من نهج الأمر : ابانه وأوضحه، ونهج الطريق : سلكه، وانتهج الرجل : طلب المنهج أي الطريق الواضح. والمنهج (La méthode) اصطلاحا — حسب أشهر التعاريف وأكثرها ورودا في الدراسات الجادة — هو طائفة من القواعد المصوغة من أجل الوصول إلى الحقيقة في العلم[2].

ثانيا النظام : من نظم أي رتب، والنظم التأليف، وتنظم الأمر : استقام. (عن «لسان العرب» ج 12 ص 578 وما بعدها) والنظام أو النسق (Le système)

---

(1) عن لسان العرب لابن منظور. ج 2. ص 383 وما بعدها. دار صادر بيروت. د.ت.

(2) انظر مثلاً عبد الرحمن بدوي. مناهج البحث العلمي. دار النهضة العربية القاهرة. 1963. ص 3.

مجموعة من العناصر (بالمعنى الرياضي لمصطلح مجموعة) تسهم متضافرة في إقامة هذا النظام، ولا يمكن وصف وتصنيف هذه العناصر إلا بالكشف عن مكوناتها البسيطة وتحديد العلاقات والروابط التي توجد بين هذه الأخيرة من جهة وبين العناصر والمجموعات داخل النظام من جهة أخرى. وعملية الكشف والتحديد تمر عبر عمليات التجزيء ؛ فالتحليل ثم التركيب مع إمكانية الانتقال من الجزء إلى الكل وَالعكس ومن البسيط إلى المعقد والعكس.

ثالثا البنية اصطلاحا : نظام يشتغل حسب مجموعة من القواعد المضبوطة. واشتغالها هذا يحفظها من التلف ويضمن تطورها ويغنيها عن الاحتياج إلى الاستعانة بعناصر خارجية، فالبنية منغلقة على نفسها مكتفية بالعناصر المكونة لها، وهي بهذا المعنى نظام يتصف بالكلية والتحويلية والضبط الداخلي. فالبنية مختلفة تمام الاختلاف عن الركام الذي هو عبارة عن عناصر مشتتة مستقلٌ بعضها عن البعض الآخر لا جامع بينها. واللغة ــ كما يقال مثلا ــ ليست مجرد لائحة من المفردات بل هي بالأساس كل العلاقات التي تربط بين هذه المفردات على مختلف المستويات. وبهذا المعنى تكون البنية هي مجموع العلاقات التي تربط بين العناصر المؤلفة للبنية نفسها. تتحدد بنية الأسرة مثلا في مجموع القوانين التي تضبط العلاقات بين مختلف أفرادها أي بين الزوج وزوجته والأب وابنه الصغير أو الكبير وابنته الصغيرة أو المتزوجة وبين الأم وأبنائها وبناتها وأحفادها. وتتمثل هذه العلاقات في الطاعة أو الاحترام أو الرعاية أو التربية أو النفقة... فطاعة الأبوين واجبة على الأبناء والنفقة على الزوجة وأبنائها من واجبات الأب واحترام الجد والجدة من واجبات الأحفاد وهكذا دواليك. وان اختل قانون من قوانين ضبط هذه العلاقات تأثرت باقي العلاقات بذلك. ولولا وجود هذه العلاقات وغيرها الأخرى لما ألفت الأسرة بنية أساسية في المجتمع ولضاعت بالتالي كثير من قيم هذا المجتمع ككل.

والبنيوية مصطلح تتصف به المدارس الحديثة (في اللسانيات والعلوم الأخرى) التي تتفق في عدد من المفاهيم الأساسية ومن أساليب البحث التي لا تتناقض مع مفهوم «بنية» بل تهدف إلى الكشف عن قواعد نظام هذه الأخيرة في اللغة أو الأخلاق أو المجتمع... ومما يختص به البنيوي الفصل بين القواعد وتحقيقاتها إذ يستخلص النظام اللغوي مثلا من مجموع النصوص المتنوعة التي تُنْتَج في عمليات التواصل الشفاهي

خاصة ؛ عند البنيويين اذن اقتناع مسبق بأن اللغة أو المجتمع أو غيره نظام متكامل يمكن استخراجه كليا أو جزئيا باعتماد مجموعة من القواعد العامة. ان البنيويين ــ كما يقول فؤاد زكريا[3] : «ليسوا من أولئك الذين يبحثون للعلوم الاجتماعية أو الانسانية عن منهج خاص بها.. إنما هم يومنون بأن «العلم» ــ سواء أكان طبيعيا أم إنسانيا ــ له منهج واحد وان ما يصلح لاحدى الفئتين يصلح بعد تحويلات بسيطة للفئة الأخرى».

□ اللسانيات : تعريف وتحديد

اللسانيات (La linguistique) هي العلم الذي يدرس اللغات الطبيعية الانسانية في ذاتها ولذاتها مكتوبة ومنطوقة كانت أم منطوقة فقط، مع إعطاء الأسبقية لهذه الأخيرة لأنها مادة خام تساعد أكثر على التحقق من مدى فعالية أدوات بحث اللساني المعاصر، ولأنها لم تنل بَعْدُمَا تستحقه من العناية والدرس. ويهدف هذا العلم أساسا إلى وصف وتفسير أبنية هذه اللغات واستخراج القواعد العامة المشتركة بينها، والقواعد الخاصة التي تضبط العلاقات بين العناصر المؤلفة لكل لغة على حدة.

اطلق العرب المحدثون على هذا العلم الجديد عدة أسماء منها «اللسانيات» و«اللسنيات» «(و«الالسنية بالاضافة إلى «علم اللغة وفقه اللغة»)». وهذه الألفاظ مترادفة. أخذت الأولى من مادة «لسان بكسر ففتح بمعنى لغة، يقول تعالى : «وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه.... الآية»(*). وأخذت اللفظة الثانية من مادة لسن بكسر فسكون، نقل ابن منظور عن ابن سيدة قوله : «اللسان اللغة مؤنثة لا غير. واللسن بكسر اللام : اللغة...» وأضاف صاحب لسان العرب «واللسن الكلام ولاسنه ناطقه...» (ج 13). و«علم اللغة» استعمال قديم وكذلك «فقه اللغة»، من الذين استعملوا الأول ابن خلدون في مقدمته ومن الذين استعملوا الثاني الثعالبي.

وأول مسلمات اللساني اعتبار اللغة نظاما أي بنيات مؤلفة من مجموعة من العناصر تشتغل حسب مجموعة من القوانين المضبوطة التي تحافظ على انسجام وتماسك هذه العناصر، وتحقق التكامل والاستقلال الداخلي للنظام ككل، وتضمن له الاكتفاء

(3) فؤاد زكريا : الجذور الفلسفية للبنائية، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، 1980، ص 9.

(*) الآية 4 من سورة إبراهيم.

الذاتي. وهكذا تتصف البنيات اللغوية بالكلية وبالتحويلية وبالضبط الداخلي، كما تقدم. يوجد عند اللساني إذن اقتناع مسبق بأن اللغة بنيات داخلية لا يمكن صهر بعضها في بعض أو إنابة بعضها عن البعض الآخر بل هي كل تنتظم ضمن نظام عام هو اللغة.

واللسانيات الحديثة مختلفة تمام الاختلاف عن الانحاء التقليدية التي لا تهتم إلا باللغات المكتوبة، ويغلب عليها الطابع المعياري وتتميز بتجزيىء وتفتيت القضايا اللغوية وبحث الأجزاء بمعزل عن النظام العام ودون أخذه بعين الاعتبار لانعدام الوعي الكامل بهذا النظام عند النحاة القدامى والتقليديين غربيين كانوا أم شرقيين. فالنحاة الهنود مثل بانيني (Panini) واليونان مثل دوني دوطسراس (Dethrace) واللاتينيون وكذا العرب وغيرهم كان همهم الأول هو وصف اللغة واستخراج قواعدها خدمة للنصوص المقدسة (تفسير هذه النصوص والحفاظ على لغاتها من اللحن والدخيل... (من «الفساد» بتعبير القدامى) ومن أجل تعليم هذه اللغات.

كما أن اللسانيات مختلفة عن الفيلولوجيا (La philologie) أو فقه اللغة، حسب تعبير بعض المحدثين، من حيث أسلوب البحث وهدفه، فالفيلولوجيا لا تهتم إلا بالنصوص المنقوشة على الحجارة مثلا أو المكتوبة القديمة، وهدفها هو دراسة هذه النصوص من الداخل والخارج : من الداخل بفك الغازها ورموزها الغامضة ووصف اللغات التي كتبت بها مثلا واصلاح ما وقع فيها من بتر أو خطأ عند النسخ، ومقارنتها بالنصوص المشابهة التي تقدمتها أو عاصرتها إلى آخره، ومن الخارج بتصحيح نسبتها مثلا في ضوء المعلومات التاريخية والثقافية والحضارية المتوفرة بصفة عامة وغير ذلك. وباختصار فإن عالم الفيلولوجيا يهدف إلى إخراج هذه النصوص القديمة وتقديمها إلى المهتمين في شكل يمكن معه الاستفادة منها بسهولة ويسر في عدة علوم كالتاريخ والأدب وعلم الاجتماع والانتربلوجيا وغيرها من العلوم الانسانية وربما الدقيقة كذلك.

اللسانيات اذن، علم يختلف من حيث الهدف ومن حيث أدوات البحث والأسس النظرية والمعرفية عن النحو وعن الفيلولوجيا. وان كان موضوع هذه العلوم جميعا واحد هو اللغة، فهدف اللسانيات الأول كما يقول دوسوسير : هو «دراسة اللغة في ذاتها ولذاتها». والبحث عن نظرية عامة لِوَصْفِ اللغات الانسانية الطبيعية باعتماد نموذج شكلي في التحليل. واللساني عالم يتحرى الموضوعية البحتة ويحاول جهد الامكان الاستفادة من مناهج العلوم الدقيقة في تطوير أساليب بحثه دون الوقوع في الخلط أو

التحامل والاسقاط. وتمثل اللسانيات صلة وصل بين العلوم الانسانية من جهة والعلوم الدقيقة من جهة أخرى، وتعتبر حاليا أقرب إلى هذه الأخيرة منها إلى الأولى — وقد تأثرت بأساليب بحث اللسانيات جل العلوم الانسانية الحديثة كالانتربولوجيا والتاريخ وعلم النفس وعلم الاجتماع والنقد الأدبي.. واستفادت كثيرا من مناهجها المنضبطة. يقول ليفي ستراوس، في كتابه «الانتربلوجيا البنيوية» في ص : 80[4] : «إننا (يقصد علماء الانتربولوجيا) نجد أنفسنا إزاء علماء اللغة (اللسانيين) في وضع حرج. فطوال سنوات متعددة كنا نشتغل معهم جنبا إلى جنب، وفجأة يبدو لنا أن اللغويين لم يعودوا معنا، وإنما انتقلوا إلى الجانب الآخر من ذلك الحاجز الذي يفصل العلوم الطبيعية الدقيقة عن العلوم الانسانية والاجتماعية، والذي ظل الناس يعتقدون طويلا باستحالة عبوره. وهكذا أخذ اللغويون... يشتغلون بتلك الطريقة المنضبطة التي تعودنا ان نعترف باستسلام انها وقف على العلوم الطبيعية وحدها، مما ولد في نفسوها قدرا من الأسى وكثيرا من الحسد إذا أردنا أن نكون صرحاء، فنحن نريد أن نتعلم من اللغويين سر نجاحهم. فهلا يمكننا أن نطبق بدورنا على المجال المعقد لدراستنا — كمجال القرابة والتنظيم الاجتماعي والدين والفلكلور والأدب — تلك المناهج المنضبطة التي يتحقق عالم اللغة في كل يوم من فعاليتها».

وتتفرع اللسانيات المعاصرة إلى مدارس عدة أشهرها التوزيعية والوظيفية والتوليدية كما أنها تعرف تخصصات متنوعة منها :

- اللسانيات العامة Linguistique générale
- اللسانيات التطبيقية Linguistique appliquée
- اللسانيات الاجتماعية Sociolinguistique
- اللسانيات النفسية Psycholinguistique
- اللسانيات الجغرافية Linguistique géographique

□ أسس لسانيات دوسوسير

يكاد يجمع كل المهتمين على اعتبار سنة 1916 تاريخ ميلاد اللسانيات الحديثة،

---

(4) نقلاً عن فؤاد زكريا : **الجذور الفلسفية للبنائية**. ص 8.

وهي السنة التي ظهر فيها كتاب «دروس في اللسانيات العامة» «Cours de linguistique générale» للغوي السويسري فيردنان دوسوسير (F. DE Saussure) المتوفى سنة 1913. ويرجع الفضل في صدور هذا المؤلف القيم للعالمين شارل بالي (Ch. Bally) والبير سيشهاي (A. Sechehaye) اللذين جمعا الدروس التي ألقاها أستاذهما دوسوسير ما بين 1907 و1911 بجونيف. وقد اعتمد هذان الباحثان في جمع مادة هذا المؤلف على الأقوال والتعاليق التي كان يسجلها الطلبة عند حضور هذه الدروس وعلى مجموعة من الكراسات المخطوطة التي كان يسجل فيها دوسوسير ملخصات دروسه وملاحظاته الخاصة في موضوع اللسانيات العامة.

ورغم ظروف الحرب العالمية الأولى فإن كتاب «دروس في اللسانيات العامة» أثار انتباه كثير من المختصين. ففي نفس سنة صدوره كتب اللغوي الفرنسي، المعروف بدراساته المقارنة أونطوان مايي (A. Meillet) تعليقا مطولا عليه. وفي سنة 1917 نشر كرامون (Grammont) تقديما للكتاب. كما فعل نفس الشيء ماروزو (Marouseau) سنة 1923. وفي سنة 1924 نشر اللغوي الأمريكي بلومفيد (L. Bloomfield) رائد المدرسة التوزيعية تحليلا مطولا للكتاب. ودرس لغويو شرق أوربا كتاب دوسوسير دراسة متأنية افادتهم كثيرا في وضع أسس علم الفونلوجيا، أكثر العلوم اللسانية تطورا وأكثرها ضبطا. (انظر : لسانيات القرن العشرين لجورج مونان ص 52). كما تُرجم «دروس في اللسانيات العامة» إلى كثير من اللغات كالانجليزية والاسبانية واليابانية والروسية والايطالية وغيرها وترجم أخيرا إلى العربية.

هذا هو ما يمكن أن يقال باختصار شديد عن هاته الدروس التي وضع فيها دوسوسير الأسس الأولى للسانيات الحديثة وللبنيوية بصفة عامة. وإغناء لهذه المعلومات لابد من الاشارة إلى أن دوسوسير «ليس ظاهرة منفردة ظهر فجأة عند مفترق طرق خالية عام 1916» كما يقول جورج مونان أويرتيل ملمبيرغ أو غيرهما من الباحثين. لقد اتصل دوسوسير بكبار فقهاء علم اللغة التاريخي والمقارن في ألمانيا على الخصوص، وأخذ عنهم الكثير وأصبح منذ بداية العقد الثالث من حياته من أقطاب هذا الاتجاه الذي ساد أوربا خلال القرن التاسع عشر. فألف دوسوسير في اللغويات التاريخية والمقارنة عددا من الأبحاث القيمة ودرس هذا الاتجاه بجامعة باريز وبغيرها. ثم توجه في آخر حياته إلى البحث في اللسانيات العامة متأثرا في ذلك بالجو العلمي

الذي كان سائدا في نهاية القرن التاسع عشر وبداية العشرين. فاستفاد دوسوسير كثيرا في وضع تصوره العام عن اللغة وعن أساليب بحثها من علم الاجتماع الدوركايمي ومن التحليل النفسي الفرويدي ومن علم الاقتصاد السياسي السويسري...

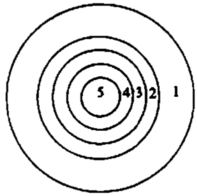
وتوجد إرهاصات متعددة لأساليب دوسوسير النظرية عند بعض اللغويين ممن سبقوه أو عاصروه من أمثال الأوربيين بريال (Breal) وبودوان دُوكورتني (Baudouin De Courteney) واونطوان مارتي (A. Marty) والأمريكي ويتني (Whitney). ولكن، لم يستطع أحد من هؤلاء أن يصل إلى ما وصل إليه دوسوسير من النظرة الشمولية المتكاملة. ويمكن تجسيد هذه النظرة في التقابلات الثنائية التي تُمكن الاحاطة بها في دقائقها من معرفة جوهر أسس اللسانيات البنيوية. فإن كان من أهم أسس الفكر السوسيري القول بضرورة دراسة اللغة في ذاتها ولذاتها والبحث في نظامها الداخلي على أساس أنها شيء يمكن تطبيق مناهج العلوم الدقيقة عليه كسائر الأشياء الأخرى، وأن هذا الشيء يؤلف نظاما متكاملا في كل مراحل تطوره وآن اشتغاله، إلى آخره، فإن أهم هذه الأسس على الاطلاق كما قلنا — هي رؤية دوسوسير الثنائية التقابلية للمؤسسات وأنظمتها. ويمكن تقسيم هذه الثنائيات (Les dualités) إلى صنفين، الأول إجرائي ؛ الغرض منه هو الجواب عن السؤال التالي : ما هو موضوع اللسانيات ؟ والثاني منهجي يتعلق بأساليب البحث في اللغة ويتعلق بطبيعتها وطبيعة العناصر المؤلفة لها. ويمكن حصر هذه الثنائيات فيمايلي :

1. المؤسسات الاجتماعية / 2. المؤسسات الترميزية.
2. المؤسسات الترميزية / 3. اللسان (الكلام الانساني)
3. اللسان / 4. اللغة (اللغة المعنينة)
4. اللغة / 5. الكلام الفردي، (اللفظ) (الانجاز)
6. دراسة اللغة من الداخل / 7. دراسة اللغة من الخارج
8. الدراسة السانكرونية (التزامية) / 9. الدراسة الدياكرونية (التاريخية، التطورية)
10. المستوى الجردي / 11. المستوى التركيبي.

الدليل = 13/12

12 الدال/13 المدلول

ويقيم دوسوسير التقابل في القسم الأول من هذه الثنائيات في كل مرة بين الكل وجزئه ويتدرج في ذلك من مجال المؤسسات الاجتماعية الانسانية عامة إلى أن يصل إلى أبسط مكونات ومحركات هذه المؤسسات وهو الفرد الواحد المستقل المتمثل في الكلام الفردي. ويمكن التمثيل لهذا التدرج باعتماد مفهوم المجموعات الرياضية كما يوضحه الرسم التالي :



2/1
3/2
4/3
5/4

ننتقل الآن إلى التعريف بالمراد من كل واحد من مكونات مجموع هذه الثنائيات. ونبدأ بالاجرائية ثم ننتقل إلى المنهجية والمفهومية بعد ذلك. ونعتمد في ذكر مختلف هذه التعاريف المقتضبة على «دروس في اللسانيات العامة» مع الاستعانة ببعض الكتب التفسيرية والتلخيصية التي تناولت هذا الموضوع.

الثنائية الأولى : 1 المؤسسات الاجتماعية/2 المؤسسات الترميزية.

1) تفرض الحياة ضمن الجماعات نوعا من السلوك الذي يتجاوز كيانات الأفراد المستقلين، ففي ظل الجماعات تنشأ وتتأصل طائفة من الظواهر التي تكوّن المؤسسات الاجتماعية. وهذه الأخيرة هي مجموع البنيات الاجتماعية التي تنظمها القوانين والعادات والتقاليد والأعراف... وتنشأ الظواهر الاجتماعية في حضن الحياة الاجتماعية التي تسودها أنماط مختلفة ومتعددة من العلاقات المتشابكة بين الأفراد نتيجة التصورات الجماعية المشتركة. وتتميز الظاهرة الاجتماعية بعدد من الخصائص أهمها اثنتان :

ـــ الاستقلال عن الفرد الذي يجد الظاهرة قائمة عند مولده، فلا يسعه سوى الرضوخ لها وان كان بإمكانه المشاركة في تغييرها أو تطويرها.

ـــ القسر أو الاكراه. فالظاهرة الاجتماعية (التي هي بنية تتميز بقواعدها الخاصة) قسرية لا يمكن ولا يحق للفرد التخلص منها أو عدم الخضوع لها.

والمؤسسات الاجتماعية كثيرة ومتنوعة وتربط بينها علاقات عديدة، ومن هذه

المؤسسات : الأسرة أو الحي أو المدينة، أو المدرسة، أو الدولة، أو القضاء، أو العادات والتقاليد، أو وسائل التواصل والتخاطب الخ. وأشهر العلوم المهتمة بالمؤسسات الاجتماعية وظواهرها العامة والخاصة علم الاجتماع.

2) المؤسسات الترميزية (أو السيميولوجية). وهي بعض من المؤسسات الاجتماعية ككل. وهي مجموع المنظمات التي يعتمدها أفراد المجتمع الانساني الواحد أو المجتمعات المختلفة للتواصل فيما بينهم ومع الغير من مثل اللغات المنطوقة والرموز المكتوبة والمرسومة والمنحوتة والعلامات الطرقية (الخاصة بالسائقين والراحلين) والاشارات والحركات الجسدية (التي نعتمد فيها اليد أو الوجه أو الرأس أو الرجل...) والرموز الصوتية (كدق الطبول والصفير والموسيقى). واختصارا، تخاطب الرموز بحسب أنواعها واحدا أو أكثر من حواسنا الخمس. وأشهر العلوم الحديثة المهتمة بالمؤسسات الترميزية السيميولوجيا. وهو العلم الذي تكهن بظهوره دوسوسير في دروسه حين قال[5] : «اللغة نظام دلائل تعبر عن أفكار وهي بهذا المعنى شبيهة بالكتابة وأبجدية الصم البكم والطقوس الرمزية واشكال التأدب والعلامات الحربية الخ. هي فقط أهم هذه الأنظمة. ويمكن إذن أن نتصور علما يدرس حياة الرموز داخل الحياة الاجتماعية وسيؤلف قسما من علم النفس الاجتماعي وبالتالي من علم النفس العام. وسنسميه السيميولوجيا (من اليونانية (Semeion). سيعرفنا هذا العلم على المراد بالرموز وعلى القوانين التي تنظمها. وبما أنه مازال لم يوجد بعد فليس بإمكاننا أن نقول كيف سيكون، ولكن حقه في الوجود أكيد ومكانه مُعين سبقا. واللسانيات ليست سوى قسم من هذا العلم العام».

يقول بير كيرو بأن صرح السميولوجيا يقام حاليا في إطار اتجاهين اثنين :

1) البحث عن نظرية عامة للرموز، لوظائفها وتوظيفاتها.

2) جرد ووصف مختلف الأنظمة أو الأجناس الخاصة من أنظمة الرموز.

والرمز شيء محسوس ينقل صورة شيء آخر محسوس أو معنوي مجرد. وعليه فكل ما يمكن التعرف عليه بواحد أو أكثر من حواسنا الخمس يمكن أن يؤلف رمزا ويكوِّن

---

(5) **دروس في الألسنية العامة** لدوسوسير، تعريب صالح القرمادي ومحمد الشاوش ومحمد عجينة، الدار العربية للكتاب، طرابلس، ليبيا، 1985. ص : 37.

موضوع بحث سيميلوجي. ذكرنا هذا التعريف العام لننبه إلى سعة مجال هذا العلم وهو أمر انتبه إليه علماء السيميلوجيا فذهب جلهم إلى حصر هذا البحث فيما هو آدمي وأبعدوا بذلك وسائل تواصل الحيوانات والآلات وخلايا الجسم....

كما اشترطوا في الرمز أن يكون إراديا الهدف منه ربط التواصل مع الآخر وميزوه بالتالي عن العلامات (Les indices) غير الارادية من مثل ما ينتمي إلى الظواهر الطبيعية كتلبد السماء بالسحب وهي علامة على قرب سقوط المطر ومن مثل ما هو آدمي كصداع الرأس وهو علامة على التعب أو الألم في البطن وهو علامة على الاصابة بمرض ما.

والأساس في رموز التواصل هو الاتفاق ؛ فتحديد دلالة رمز ما تتم عندما يتفق مستعملو ذلك الرمز على تحديد تلك الدلالة الخاصة. وإذا كان الأصل في علاقة دال ومدلول الدليل اللغوي هو الاعتباط فإن هذه العلاقة درجات في الرمز. فهناك «الرموز التي تكون فيها العلاقة من صنف التماثل (التام أو الناقص بين الدال والمدلول) وهناك الرمز الذي تكون العلاقة تقليدا (الفوتغرافية) أو تكون العلاقة مجردة نسبيا في مثل الرسم البياني أو تكون العلاقة كنائية بسيطة (الصليب رمز المسيحية) أو اعتباطية.

ويسمى الرمز في الحالة الأولى معللا أو تماثليا وفي الحالة المناقضة اعتباطيا أو غير معلل.

وتبقى السيميلوجيا علما عاما من أشهر الذين خاضوا فيه الأمريكي بيرس والفرنسيون بارت وكيرو وكريماس والروسي الأصل ياكوبسون.... وعرف هذا العلم تطورا وانتشارا بينين في ميدان النقد الأدبي ونقد الفنون الجميلة(6).

3) اللسان (أو الكلام الانساني) (Le langage) وهو إجمالاً القدرة الفطرية الموجودة عند الكائن الآدمي للتواصل بواسطة نظام ترميزي شفوي مع الغير إنسانا كان أم حيوانا أم آلة... وهذه القدرة خاصية يتميز بها الانسان عن باقي المخلوقات الحية الموجودة على سطح الكرة الأرضية. ومن أجلها سمي بالحيوان الناطق. وهو يعتمد في

(6) لمن أراد التوسع في هذا الموضوع : انظر مثلاً : **عناصر السيميولوجيا** ل. رولاند بارت المنشور بمجلة Communication. عدد 4. وانظر مقالة : السيميولوجيا : عالم الرموز، لبييركيرو، المنشورة في كتاب Comprendre la linguistique, Marabout U, Paris. 1975

هذا التواصل على تقنية جسدية معقدة يسخر فيها عددا من عضلات الجسم التي اصطلح على تسمية أهمها بعضلات جهاز النطق أو القناة المصوتة. ويراقب نشاط هذه العضلات ويتحكم في اشتغالها جهاز عصَبي خاص مرتبط بالدماغ أصل ومركز الوظيفة النطقية. واللسان بهذا المعنى نشاط إنساني له جوانب فردية وأخرى جماعية كما يقول دوسوسير. ودراسته تتناول عدة قضايا تتصل بعلوم مختلفة كافونتيكا واللسانيات العامة (القواعد والبنيات) واللسانيات الاجتماعية (علاقة اللسان بالمجتمع مثلا) واللسانيات النفسية (علاقة اللسان بالفرد المتكلم)، والطب العضلي والتشريح الطبي (الدماغ وعضلات جهاز النطق) وعلم التواصل (انتقال الارسالية من الباعث إلى المتلقي) وهكذا دواليك. وللسان[7] «جانب شخصي — كما يقول دوسوسير — وجانب اجتماعي. ولا يمكن تصور الواحد بدون الآخر. وبالإضافة إلى ذلك : فهو يقتضي في كل آونة نظاما مستقرا وتطورا. فهي في كل حين مؤسسة حالة ونتاج من نتاجات الماضي. ويبدو لأول وهلة ان التمييز بين النظام وتاريخه أي بين ما هو عليه وما كان عليه، هو من السهولة، بمكان. وواقع الأمر ان العلاقة الرابطة بين هذين الشيئين هي من المتانة بحيث يعسر الفصل بينهما».

4) اللغة (اللغة المعينة) (La langue) : وهي الذخيرة الاجتماعية التي لا يمتلكها الفرد الواحد مهما بلغ من سعة الاطلاع والمعرفة وكثرة الاستعمال لذا لا يكتفي الدارسون في وصف أية لغة من اللغات الانسانية الطبيعية بالأخذ عن راوية واحد أو عدد قليل من الرواة بل يعددون — ما أمكن — مصادرهم على شاكلة ما فعل نحاة العربية الأولون مثلا. وتتكوَّن اللغة من مجموع العناصر والقواعد التي تنتظم في إطار متميز بمجموعة لسانية معينة. فاللغة نسق (système) يتألف من مجموعة من البنيات التي تنتظم ضمنها العلاقات المعقدة الرابطة بين العناصر المختلفة كالأصوات والمقاطع وكذا الجمل. يقول دوسوسير[8] إن اللغة واللسان عندنا ليسا بشيء واحد. فإنما هي منه بمثابة قسم معين وان كان أساسيا والحق يقال. فهي في الآن نفسه نتاج اجتماعي لملكة الكلام، ومجموعة من المواضعات يتبناها الكيان الاجتماعي ليمكن الأفارد من ممارسة هذه الملكة. وإذا أخذنا الكلام (اللسان) جملة بدا لنا متعدد

(7) دروس في الألسنية العامة. تعريب صالح القرمادي ومن معه. ص 28.

(8) المرجع السابق. ص 29.

الأشكال متباين المقومات موزعا في الآن نفسه بين ميادين متعددة بما فيها الفيزيائي والفيزيزلزجي والنفسي، منتميا في الآن نفسه إلى ما هو فردي وإلى ما هو اجتماعي. ولا يتسنى لنا ترتيبه ضمن أي قسم من أقسام الظواهر البشرية لأننا لا نستطيع أن نستخرج وحْدَتَه. اما اللغة فهي على عكس ذلك، كل بذاته ومبدأ من مبادئ التبويب. وما ان نجعلها في المقام الأول بين ظواهر الكلام حتى ندخل نظاما طبيعيا في مجموعة من الظواهر لا تخضع لأي نوع آخر من التبويب. واللغة بهذا المعنى وبسابقه شكل معقد جدا انه أكثر الأنظمة الترميزية تعقيدا وتشعبا. لذا يلتجئ اللغويون إلى تقسيمها إلى مستويات ليتسنى التغلب على هذا الكل المتداخل المتشابك المتماسك ويتم حصره وضبط قواعد اشتغاله. ومن أشهر هذه التقسيمات التمييز بين المستويات التالية :

الصوتي، الصرفي، التركيبي، الدلالي والتداولي.

وَلِدُوسوسير وجهة نظر خاصة في موضوع تقسيم اللغة إلى مستويات عند دراستها عبَّر عنها في أحد دروسه المنشورة ضمن كتابه المشهور. ولا بأس من تلخيص وجهة النظر هذه هنا. يتساءل دوسوسير عن مدى انسجام تقسيم اللغة إلى المستويات المعروفة مع حقيقة هذه اللغة، فيذكر أن الفصل بين الصرف والتركيب وهمي لا يتحق في الواقع ويأتي بعدة أمثلة للبرهنة على تداخل قضايا هذين المستويين، وزيادة في الالحاح على التداخل الذي تتميز به مستويات الدرس اللغوي جميعا، يتحدث دوسوسير عن علاقة المعجم بالنحو بمعناه العام الذي يشمل كل قضايا النظام. فيذكر ان الكلمات ــ كما هي مسجلة في المعجم ــ قد تبدو للوهلة الأولى غير معدة للدراسة النحوية، ولكننا نلاحظ ــ كما يقول دوسوسير ــ ان كثيرا من العلاقات النحوية يمكن التعبير عنها كذلك بالكلمات المفردة كما نعبر عنها بوسائل أخرى «فان نحن قارنا بين «إمرأة» و«نساء» في العربية وبين des femmes وune femme في الفرنسية ظهر لنا التقابل في اللغة الأولى ذا طبيعة معجمية وفي الثانية ذا طبيعة نحوية. كما اننا قد نعوض في نفس اللغة الكلمات المفردة بالمؤلفات المركبة. مثال ذلك :

اعتبر وضعيتك الخاصة.

آخذ بعين الاعتبار وضعيتك الخاصة.

يظهر من هذا المثال ومن سابقه أن الوقائع المعجمية قد تختلط من الناحية الوظيفية

بالوقائع التركيبية ويلاحظ دوسوسير كذلك ان الوحدات غير البسيطة من مثل «عبد الله أو سيبويه...» لا تختلف كثيرا عن أجزاء الجمل وبالتالي عن الوقائع التركيبية. ويختم حديثه عن التقسيم التقليدي بقوله : «وخلاصة القول أن صور تقسيمهم التقليدية للنحو قد يكون لها فائدتها العَمَلِية التطبيقية إلا أنها لا توافق أسسا طبيعية في التمييز ولا تربط بينها أية علاقة» (ص 203) ثم ينتقل دوسوسير لاقتراح ما يسميه التقسيم المعقول ويمهد له بالاشارة إلى أن السبب في تداخل قضايا التصريف والتركيب والمعجم... هو طبيعة العمق المشترك لكل الوقائع السانكرونية (انظر أسفله) التي لا يمكن أن يوجد بينها أي حد مرسوم مسبقا. وينتقل لذكر مقترحه فيقول : «التمييز الذي وضعناه آنفا بين العلاقات السياقية (التركيبية) والعلاقات الترابطية (الجردية) (انظر أسفله) هو وحده قادر على أن يوحي إلينا بطريقة في تبويب الظواهر النحوية تفرض نفسها بنفسها وهي الطريقة الوحيدة التي يمكن أن نتخدها أساسا يبنى عليه النظام النحوي» (ص 204) كل ما يؤلف حالة لغة ما يجب أن يخضع للنظرية التركيبية وللنظرية الجردية. لابد بعد هذا التذكير — من الاشارة إلى أن ما دعا إليه دوسوسير لم يحل دون استمرار الفصل بين المستويات في الدرس اللغوي. ومن اللسانيين المعاصرين من اقترح تحديدات جديدة للمستويات التقليدية — كما فعل ذلك الوظيفيون والتوزيعيون — ومنهم من قال بتقسيمات أخرى من مثل ما قال به التوليديون في نموذجهم الأول حيث اقترحوا التمييز في الدرس اللغوي بين ثلاثة مكونات هي : المكون الصوتي، المكون التركيبي والمكون الدلالي. والفصل بين المستويات في الدرس اللغوي عمل إجرائي الهدف منه تفتيت هذا الكل (وهو نظام اللغة) مرحليا قصد تعمق قضاياه والاحاطة بمختلف جزئياته لضبط قواعد اشتغاله.

5) الكلام الفردي (اللفظ) (La parole) : حدد دوسوسير مفهوم الكلام الفردي في معرض حديثه عن اللسان. وأقام أهم عناصر هذا التحديد على أساس المقارنة بين اللغة من جهة والكلام الفردي من جهة أخرى. يقول دوسوسير : «وهكذا فإننا إذ نفصل اللغة عن اللفظ (الكلام الفردي) نفصل في الآن نفسه أولا ما هو اجتماعي عما هو فردي : ثانيا، ما هو جوهري عما هو ثانوي وعرضي بدرجة من الدرجات. وليست اللغة وظيفة من وظائف المتكلم بل هي نتاج يتقبله ويسجله دون أن يقوم بأي نشاط. وليس له فيها البتة أي سابق اضمار، بل ليس لتفكيره فيها من نشاط سوى نشاط

الترتيب (...) واما اللفظ فهو على العكس من ذلك عمل فردي يقوم على الارادة والذكاء. ويحسن ان نميز فيه بين :

1. التوليفات (Les combinaisons) التي بواسطتها يستعمل المتكلم قانون اللغة ليعبر عن رأيه الشخصي.

2. الاوالية (Le mécanisme) النفسية الفيزيائية التي تمكنه من إبراز تلك التوليفات إلى الخارج»(9).

الكلام الفردي أو اللفظ هو إنجاز أو تطبيق خاص للقانون العام الذي هو اللغة. يكون الانسان الفرد في هذا الانجاز هو السيد المتصرف بإرادته في إطار القواعد العامة. فالكلام الفردي عمل حر إبداعي لأنه الأسلوب الشخصي في تطبيق القانون العام أي اللغة. ويمكن تقريب هذا الموضوع إلى الذهن بالاشارة إلى أن الأساليب قد تختلف باختلاف المستعملين لنفس اللغة. فأسلوب المعري ليس هو أسلوب المتنبي وأسلوب طه حسين ليس هو أسلوب نجيب محفوظ أو عبد الكريم غلاب مثلا، وان كتب جميع هؤلاء بنفس اللغة، والتزموا نفس القواعد أو القوانين التي وصفها نحاة العربية.

وأثر الثنائية : لغة/كلام فردي ظاهر للعيان في كثير من الدراسات البنيوية لغوية كانت أم نقدية أم غيرها. فالفرق بين الفونتيكا والفونلوجيا هو الفرق الموجود بين الكلام الفردي واللغة. كما أن الفرق، في النقد البنيوي، بين الاستعمال العادي للغة والاستعمال الإبداعي لهذه اللغة يفسَّر بالفرق الموجود بين اللغة كنظام عام مشترك والكلام الفردي كأسلوب خاص في تطبيق هذا النظام، وبهذا يمكن تفسير فكرة الانزياح (L'écart) التي يقول بها بعض النقاد مثلا.

بهذا ننهي تعريف العناصر المكونة للثنائيات الاجرائية التي تهدف إلى تحديد موضوع اللسانيات وهو الذي يقول عنه دوسوسير : «يجب أن نحصر اهتمامنا في ميدان اللغة فقط وان نتخذها قاعدة للحكم على جميع مظاهر الكلام الأخرى» ص 29.

---

(9) دروس في الألسنية العامة، ص : 34—35.

وننتقل الآن للتعريف بالثنائيات المتعلقة بطبيعة اللغة وبطبيعة عناصرها وأسلوب دراستها.

6) دراسة اللغة من الداخل/7 دراسة اللغة من الخارج.

اعتمد دوسوسير غيرما مرة لعبة السطرنج لتوضيح بعض أفكاره في موضوع اللسانيات البنيوية. فجاء بمثال هذه اللعبة عند التمييز بين السانكرونية والدياكرونية كما سنرى فيما بعد، كما جاء به لتوضيح الفرق بين عنصري الثنائية الحالية. فالبحث في أصل لعبة السطرنج وكيفية انتقالها من بلدها الأصلي إلى البلدان الأخرى وتاريخ اشتهارها وانتشارها. وكذا البحث في طبيعة المادة التي تصنع بها الرقعة أو القطع وصانعها... أمور تخص دراسة هذه اللعبة من الخارج ونفس الحكم يصدق على البحث في أصل اللغة وانتمائها السلالي وموطنها الأصلي وكيفية انتشارها فيه وفي غيره من المواطن الأخرى وفي متكلميها الأصليين أو الحاليين وتفرعاتها اللهجة كل ذلك يتعلق بدراسة اللغة من الخارج. اما البحث في قواعد لعبة السطرنج وقوانين تحرك كل صنف من أصناف القطع، وأساليب الهجوم والدفاع، والتقدم والتأخر، والأخذ والعطاء... فهي أمور تهم دراسة اللعبة من الداخل. كما أن وصف وتفسير قواعد اللغة الصوتية أو الصرفية أو التركيبية... وضبط العلاقات التي تربط بين مختلف أجزاء الوحدات بسيطة كانت أم معقدة، ومعرفة التحولات التي تطرأ على العناصر اللغوية نتيجة استعمالاتها المختلفة، والبحث في كيفية تطور هذه العلاقات وتغير هذه القواعد مع مرور الزمن وتعاقب المراحل... من صميم دراسة اللغة من الداخل. والقول بأن «اللسانيات هي دراسة اللغة في ذاتها ولذاتها» هو إعطاء الأولوية لهذا الصنف الأخير من الدراسة بل هو حصر اللسانيات الحديثة في دراسة اللغة من الداخل فقط.

وقد ألح دوسوسير كثيرا على ضرورة الفصل فصلا تاما بين دراسة اللغة من الخارج ودراستها من الداخل ومما يقوله في هذا الموضوع : «... ومهما يكن من أمر فإن الفصل بين وجهتي النظر المذكورتين واقع يفرض نفسه وكلما كان احترامه دقيقا كان ذلك أفضل.

وأفضل دليل على ذلك أن كلا منهما يخلق منهجا متميزا فالألسنية الخارجية، يمكنها أن تكدس التفاصيل دون أن يحصر أصحابها أنفسهم في فكي دراسة نظام ما... اما بالنسبة إلى الألسنية الداخلية فالأمر مخالف لذلك تمام المخالفة. فهي لا

ترضي أي تنظيم اتفق. فاللغة نظام لا يخضع لغير نظامه الخاص....» ص 46ـ47.

8) السانكرونية (الآنية)/9 الدياكرونية (التاريخية) (الزمانية)

السانكرونية هي دراسة اللغة في لحظة زمانية محددة كنظام متماسك منته ومنغلق، هي اذن دراسة اللغة في حالة معينة قد تكون قديمة أو حديثة. المهم والأساسي في هذه الدراسة هو انها لا تأخذ بعين الاعتبار لا المراحل السابقة على الحالة المدروسة ولا المراحل اللاحقة لها. بل تنظر إلى اللغة في لحظة بحثها المعينة كنظام متكامل ومستقل. ويرجع الفضل في تبرير هذا النوع من الدراسة والالحاح على أهميته إلى دوسوسير. إذ تمثل الدراسة السانكرونية عنده أسلوبا للتأكيد على أن اللغة نظام مهما كانت اللحظة التي نتناولها فيها. ويعتمد دوسوسير لعبة السطرنج للدفاع عن مذهبه في هذا الباب ولتوضيح الفرق بين الدراستين السانكرونية والدياكرونية : تتغير أوضاع قطع السطرنج عند تحريك قطعة واحدة منها أي في كل مرحلة من مراحل لعب كل واحد من الخصمين المتنافسين. وفي كل مرحلة يمكن وصف هذه الأوضاع الجديدة وتحديد شكل الرقعة بتعيين الأماكن التي تحتلها القطع وعلاقة كل واحد منها بباقي القطع الأخرى. ولا نحتاج في هذا الوصف إلى استعراض المراحل التي مر بها اللعب قبل الوصول إلى المرحلة الموصوفة. فوصف الرقعة ممكن في كل لحظة باستقلال عن المراحل التي مرت بها المباراة قبل الوصول إلى المرحلة الموصوفة. فوصف الرقعة ممكن في كل لحظة باستقلال عما تقدمها أو ما سيليها. ونفس القول يصدق على اللغة التي هي دائمة التغير. ولكن هذا التغير الدائم لا يمنع من وصف اللغة ككل في كل لحظة زمانية في ذاتها. وهدف الدراسة السانكرونية هو وصف وتفسير مجموع قواعد اللغة المدروسة وتحديد الطريقة التي تشتغل بها هذه القواعد في تلك اللحظة الزمانية المعينة.

9) أما الدياكرونية فهي تتبع تطور الظواهر اللغوية والنظام اللغوي ككل مع مرور الزمن وتعاقب المراحل. انها تتبع الظواهر اللغوية في تواليها وتغيرها من حقبة زمانية لأخرى. والدياكرونية ــ عند دوسوسير ــ وجهة نظر في البحث يمكن أن يختارها اللساني. وهي التي غلبت في القرن التاسع عشر تحت تأثير أعمال بوب (F. Bopp) وتهدف الدياكرونية إلى التفسير التاريخي للنظام السانكروني. فالظاهرة الدياكرونية هي التغيرات التي تطرأ على اللغة مع مرور الزمن. وهمُّ الدرس الدياكروني هو ملاحظة وتتبع

هذه التغيرات وتفسير السر فيها. ولكن الأهم عند دوسوسير هو الدرس السانكروني حيث يقول في دروسه : «ان أول ما يشد الانتباه عند دراسة الظواهر اللغوية هو ان تعاقبها في الزمن أمر لا وجود له بالنسبة إلى المتكلم : فالمتكلم يجد نفسه دائما تجاه حالة لغوية ما. ولذلك يجب على الالسني الذي يريد ان يدرك حقيقة هذه الحالة اللغوية ان يضرب صفحا عن جميع الأمور التي أحدثتها، أي أن يتجاهل الزمانية. وهو لا يستطيع أن يدرك ما في أذهان المتكلمين إلا إذا ألغى الماضي الغاء. وذلك انه ليس من شأن تدخل التاريخ والزمن الا ان ينحرفا بأحكامه عن الصواب، فكما انه يكون من قبيل العبث ان تحاول رسم منظر جامع لسلسلة جبال الآلب بالتقاطه وانت تنظر إليها في نفس الوقت من قمم متعددة من جبال «الجورا» إذ ينبغي أن يرسم المنظر الجامع من نقطة واحدة، فكذلك الأمر بالنسبة إلى اللغة. فأنت لا تستطيع وصفها ولا ضبط قواعدها واستعمالها إلا إذا قصرت نظرك على حالة معينة من حالاتها. (ص 129).

لقد سلك البنيويون جميعا النهج الذي رسمه دوسوسير في موضوع الفصل بين الدراستين السانكرونية والدياكرونية، ودافعوا بقوة على المنظور الأول لما يتميز به من ضبط ولما أدى إليه من نتائج مفيدة جدا في فهم أنظمة كثير من اللغات الإنسانية. ولكن بعضهم دعا مع ذلك، إلى التحلي بشيء من المرونة وإلى الاستفادة مما هو دياكروني في شرح وفهم ما هو سانكروني عند الحاجة. فهذا أندري مارتيني يقول مثلا : «تؤكد التجربة أنه من الصعب تجنب الاستعانة بالدياكرونية، خصوصا عندما نريد أن نتعرض لوصف سانكروني ما ببعض من العمق. لا بأس في هذه الاستعانة شريطة أن يتعلق الأمر في موضوعها بأشياء محدودة ومحدّدة، وأن نعرف في كل لحظة من لحظات تقديم نتائج دراستنا المستوى المعني هل هو السانكروني أم الدياكروني(10).

وهكذا يُبْقي أندري مارتيني على الفصل الذي دعا إليه أستاذ جونيف مع إباحة الجمع بين المستويين (عند الحاجة) دون الخلط بينهما.

10) العلاقات التركيبية (السياقية)/11 العلاقات الجردية (الترابطية).

العلاقة التركيبية هي كل علاقة تظهر بين وحدتين لغويتين أو أكثر في السلسلة

---

(10) A. Martinet : Evolution des langues et reconstruction, p : 10, P.U.F, Paris, 1975.

الكلامية. وخير نموذج للعلاقات التركيبية تلك التي تربط بين مكونات الجملة الواحدة أو النص المتعدد الجمل. والمركب (syntagme) في الجملة، تأليف بين عنصرين لغويين أو أكثر يكوِّن وحدة متماسكة تكون العلاقة الرابطة بين عناصرها أمتن من تلك التي تربطها بباقي عناصر الجملة، وأشهر المركبات المركب الاسمي والمركب الفعْلي.

والجملة مجموعة من المركبات التي يمكن الفصل بينها وعزل مكوناتها المباشرة باعتماد الأسلوب التحليلي الذي اقترحه اللغوي الأمريكي التوزيعي المذهب هوكيط Hokett. ويمكن توضيح هذا الأسلوب الميكانيكي بالمثال التالي : ابن أخ المعلم الكبير يأكل التفاحة الصفراء في القسم.

	أ	ب
1	ابن أخ المعلم الكبير	يأكل التفاحة الصفراء في القسم

	أ		ب		جـ
2	ابن أخ المعلم	الكبير	يأكل	التفاحة الصفراء	في القسم

3	ابن	أخ المعلم	الكبير	يأكل التفاحة	الصفراء	في القسم

4	ابن	أخ	المعلم	الكبير	يأكل التفاحة	الصفراء	في	القسم

5	ابن	أخ	الـ	معلم	الـ	كبير	يـ	أكل	الـ	تفاحة	الـ	صفراء	في	الـ	قسم

يوضح هذا المثال أن مكونات الجمل عناصر دنيا دالة اصطلح على تسميتها التوزيعيون مورفيمات (Morphèmes). وهذه الأخيرة هي التي قمنا بعزلها في المرحلة الخامسة والأخيرة من تحليل مثالنا. وتجتمع هذه المورفيمات في مركبات وتؤلف هذه الأخيرة المكونات المباشرة للجمل، وهي التي تظهر في المرحلة الثانية من تحليل هذا المثال. ويكون الارتباط بين مورفيمات نفس المركب داخل جملة ما أكثر قوة ورسوخا من الذي يربط بين هذه المورفيمات ومورفيمات مركب آخر. فمورفيمات كل من المركبات الثلاثة المكونة للجملة المثال تؤلف مجموعة منسجمة تتحلق حول النواة وهي «ابن» في المركب أ، و«أكل» في ب، وقِسْم في ج.

11) العلاقة الجردية هي تلك التي تربط بين مجموعة من الوحدات اللغوية التي قد ينوب أحدها عن الآخر في شغل وظيفة معينة في السلسلة الكلامية واحتلال نفس الرتبة التي قد تحتلها العناصر الأخرى. وظهور أحد عناصر المجموعة الواحد يحرم العناصر الباقية من الظهور عندما يكون توزيع هذه العناصر تكامليا كما هو الشأن بالنسبة للفونيم ومتغيراته السياقية (أُنظر تعريف الفونيم في مبحث الأصوات من هذا الكتاب) أو بالنسبة لحروف المضارعة في العربية مثلا.

يقول دوسوسير : «ان العلاقات والاختلافات بين عناصر اللغة تدور في نطاق دائرتين متميزتين تولد كل واحدة منهما نوعا معينا من القيم. وان التقابل بين هذين النوعين يزيد في تبيان طبيعة كل منهما. فهما يوافقان صورتين من صور نشاطنا الذهني لازمتين معا. ولا غنى لحياة اللغة عنهما.

فمن ناحية نلاحظ أن الكلمات تعقد فيما بينها — في صلب الخطاب وبمقتضى تسلسلها — علاقات قائمة على الصفة الخطية للغة. وهي صفة ينتفي معها إمكان النطق بعنصرين معا في نفس الوقت... ويمكن أن نسمي هذه التوليفات التي تتخذها من الامتداد حاملا (**سياقات**) مركبات....

ومن ناحية أخرى نلاحظ خارج الخطاب أن الكلمات المتضمنة لشيء ما مشترك بينها تترابط في الذهن، فتكوِّن بذلك مجموعات تقوم في صلبها علاقات شتى شديدة التنوع...» (ص 186—187).

ويمكن توضيح المراد من كلام دوسوسير عن صورة نشاطنا الذهني في ترتيب اللغة على المستوى الجردي بإجراء تجربة يمكن التأكد بها من صحة ما ذهب إليه

دوسوسير وتتلخصُ هذه التجربة في العمل التالي : «اطلب من مخاطبك أن يتلفظ بأول كلمة يوحي له بها سماع الكلمة التي ستنطق بها وأن يفعل ذلك بتلقائية ودون تأمل أو تفكير أو تردد. ثم تلفظ بكلمة «ولد» مثلا. ستلاحظ أن هذا الاسم قد أثار في ذهن صاحبك اسما آخر من نفس الصنف من مثل «رجل» أو «بنت» أو «إنسان» أو «ذكر» الخ، وأنه لن يثير في ذهنه كلمات من مثل «في» أو «إلى» أو «غدا» أو «هنا» أو «يخرجون»... أي أنه أثار كلمة من نفس الجريدة التي تنتمي إليها الكلمة التي سمع. هذه التجربة تؤكد أن الكلمات مرتبة في ذهننا في شكل لوائح تتميز عناصر كل واحدة منها بنوع خاص من الانسجام.

أما الترتيب على المستوى التركيبي فخير ما يؤكد وجوده داخل الذهن قدرة الإنسان على التنبؤ بالعناصر الباقية المؤلفة لجملة ما كلما تقدم المرسل في التلفظ بها والكشف عن عناصرها الأولى. فإن أنا قلت مثلا : «يلعب التلميذ بالكرة في... ولم أتمم، استطاع المستمع التنبؤ بأن المسكوت عنه هو «ساحة المدرسة» أو ما يشبه ذلك مما يُؤلف مكان اللعب بالكرة، فإمكانيات الاختيار تكون محدودة في مثل هذه الحالات، إذن لا يمكن أن يخطر على بال المستمع أن ما بعد «في» حرف جرٍّ آخر أو فعل أو «السماء» أو «الحائط» مثلا. ويرجع الفضل في هذا إلى طبيعة النشاط الذهني الذي يتتبع الألفاظ التي نسمعها في تتاليها في سياق خاص.

الدليل : (Le signe) = 12 الدال (Le signifiant)/13 المدلول (Le signifié)

الدليل (Le signe) عنصر مزدوج يتألف من وحدتين نفسانيتين مرتبطتين بالتضامّ ولا يضم الدليل شيئا إلى صوت (أصوات) وإنما مفهوما أو تصورا إلى صورة صوتية. فهو وحدة نفسية تتكون من وجهين لا ينفصل أحدهما عن الآخر كصفحتي الورقة أو وجهي القطعة النقدية مقره دماغ الانسان. ووجها الدليل هما الدال والمدلول :

12) والصورة الصوتية للدال ليست هي الأصوات المادية كما تُنتَج في الطبيعة بل هي الانطباع النفسي لهذه الأصوات. لهذا فسماع «قال» أو «كال» «آل» مثلا تثير نفس الصورة الصوتية في ذهننا وان اختلف النطق من واحد إلى آخر. وتميز الدال خاصيةُ التتالي فهو سمعي يتحقق في الزمن لذا تظهر الدوال متتالية في السلسلة الكلامية.

13) والمدلول هو التصور الذي يتكون في ذهننا بحكم تجاربنا المتعددة ومحيطنا الخاص عن مفهوم هذا المدلول. فالصورة التي يثيرها سماع لفظه «شجرة» مثلا في ذهن من يعيش في الصحراء تحت ظلال النخيل تخالف ولاشك الصورة التي يحدثها سماع نفس اللفظة في ذهن من يعيش في قِمَمِ الجبال الجليدية قرب أشجار الصنوبر أو التنوب.

ويعتبر دوسوسير أن الدليل غير مرادف للرمز (Le symbole)، ولا يمكن استعمال الثاني للحديث عن الأول لأن الرمز ليس اعتباطيا تماما بل توجد دائما علاقة طبيعية ما تربط بين داله ومدلوله في حين تكون العلاقة بين دال ومدلول الدليل اعتباطية في الغالب الأعم. فلا علاقة تربط في الواقع بين لفظة «أخت» مثلا ومفهوم هذه اللفظة.

وبِتَعْرِيفنا للدليل اللغوي ولمكونيه نكون قد انهينا حديثنا المختصر عن أهم الثنائيات.

قضايا البحث اللهجي

اخترت الحديث عن هذه القضايا بالذات نظرا لما يكتنف موضوع دراسة الآداب الشفوية ومختلف مظاهر اللهجات المحلية من غموض وسوء فهم، ولما يواجه به البعضُ هذه الدراسة من معارضة ورفض قويين خوفا من عودة ظهور دعوات نبذ الفصحى وتعويضها باللهجات في مختلف جهات البلاد العربية. وقد أوضحت في دراسة سابقة ان الفصحى تتطور حاليا تحت تأثير اللهجات العربية واللغات الحية الكبرى وان اللهجات تتطور هي الأخرى تحت تأثير الفصحى ونفس اللغات كذلك. كما بينت ان هذا التطور يسير بمستويي العربية (الفصيح واللهجيّ) نحو التقارب تدريجيا إلى أن تصبح الفروق بين المكتوب والشفاهي عندنا بسيطة من صنف تلك التي توجد في الانجليزية أو الفرنسية أو الاسبانية[1]. فلا خوف اذن من دعاوي التشتت والتفرقة فقد انقضى عهدها وزال إلى الأبد. وقسمت عرضي هذا إلى مدخل وثلاثة عناوين : احدد في المدْخل مفهومي اللغة واللهجة والعلاقة بين المكتوب والشفوي. وأوضح ذلك بالاشارة إلى مجريات ماضي وحاضر اللغة العربية. واذكر تحت العنوان الأول علاقة اللغة أو اللهجة بمتكلميها واذكر تحت العنوان الثاني المكانة المهمة التي تحتلها دراسة اللهجات والمظاهر الشفوية للغة العربية في التراث الثقافي العربي الاسلامي. وأشير تحت العنوان الثالث إلى أهمية دراسة اللهجات في تطوير أساليب وطرق تعليم اللغات.

تستعمل اللغة كنظام ترميزي شفوي اتفاقي لربط الصلة بين مجموعة إنسانية محدودة العدد ضيقة المجال في البدء وكلما تطوَّرت هذه المجموعة تطورت معها لغتها وكلما كثرت المجموعات وازداد عدد أفرادها وتفرقوا إلى فرق وشيع تفرعت معهم اللغة إلى متغيرات (variantes) مسايرة في ذلك ظروف عيش كل فريق على حدة، إلى أن

---

(1) انظر «اللغة العربية الواقع والآفاق»، مجلة الموقف، العدد 11 (1990).

تتحول هذه المتغيرات عبر القرون إلى لهجات متباينة تستجيب كل منها للحاجات والظروف الاجتماعية والبيئية التي تميز الفريق الذي اختص بتداولها. يقول رائد الوظيفية البنيوية اللغوي الفرنسي أندري مارتيني في كتابه «عناصر اللسانيات العامة : «إن اللغة ـــ أية لغة كانت ـــ ليست بالضرورة مطابقة لنفسها في كل الجهات التي تستعمل فيها. وقد ترتفع الفروق لدرجة جعل كل محاولات التواصل عمليات غير مجدية. سنقول في هذه الحالة بأن اللغة متفرعة إلى عدة «لهجات» (dialectes). ويجب على كل واصف أن يعين «اللهجة» المقصودة. ولكن، قد تكون الفروق أقل عمقا بحيث لا تحول دون استمرار التفاهم والتواصل المتبادل. من ذلك الفروق الموجودة مثلا بين فرنسية التولوزي وفرنسية الباريزي (أو بين عربية فاس وعربية مراكش أو الجزائر العاصمة)... في هذه الحالة كذلك يكون للّساني الذي يريد وصف الفرنسية الخيار : فإما أن يبعد الاستعمالات الخاصة من وصفه، وإما أن يذكرها... إذ لا تتميز أية مجموعة لغوية بالانسجام التام. لذا على الواصف ـــ بعد أن يحدد حقل عمله بحسب حاجته ـــ أن يقدم الاختلافات التي يلاحظ على أساس أنها متغيرات نفس الاستعمال لا على أساس أنها استعمالات مختلفة[2].

وقد تكبر أخيرا الاختلافات ويزداد التباعد بين لهجات نفس اللغة نتيجة تباعد الأوطان وقلة الاتصال والاحتكاك وعدم الخضوع لنفس المؤثرات الأساسية من مثل التأثر بلغات مختلفة أو التعبير عن أشياء ومفاهيم متباينة فتتحول كل لهجة على حدة إلى لغة قائمة بذاتها. هذا، باختصار شديد وبكثير من التبسيط، هو ما وقع لمختلف اللغات القديمة الكبرى التي تفرعت إلى لهجات مختلفة تحوّل البعض منها إلى لغات مستقلة.

هذا المصار الطبيعي العادي يواجه أحيانا بالمعارضة الواعية (أو غير الواعية) التي تحاول أن تمنع تحققه أو تحاول عرقلة خطاه والحد من آثاره. وأبرز الوسائل المعارضة لهذا التطور التفريعي الكتابة التي تتبِّث اللغة وتشيّع المستوى المكتوب منها بين سائر متكلميها، ومن أكثر هذه الوسائل فاعلية في هذا الباب كتب الأنحاء والمعاجم والدراسات اللغوية التقليدية عامة. فاستعمال الرسم الكتابي واستخراج ووصف قواعد

(2) انظر : A. Martinet : Eléments de linguistqiue générale, Armand Colin, Paris, 1980. p. : 30 et suite.

اللغة الصوتية والصرفية والتركيبية، وضبط أساليبها البلاغية والبيانية وجمع معجمها والآثار الأدبية والعلمية التي أنتجت بها من أهم أساليب الوقوف في وجه التطور التفريعي. ولقد كان التقعيد يهدف (في الدرجة الأولى) قديما اما للحفاظ على لغة ما في المستوى الذي كتبت به النصوص المقدسة عند متكلمي هذه اللغة، كما هو الشأن بالنسبة للسنسكريتية أو اليونانية أو العربية مثلا، واما للحفاظ على لغة المجموعة الحاكمة طبقة كانت أو فئة اجتماعية أو قبلية أو دينية أو غير ذلك، كما هو الشأن بالنسبة للفرنسية التي كانت لغة البلاط الملكي بباريز ثم تعممت فيما بعد على كثير من جهات فرنسا، أو لغات بعض القبائل الافريقية الزنجية التي سيطر بعض أفرادها على السلطة بعد انتهاء عهد الاستعمار. اللغات التي تمَّ استخراج قواعدها قديما بعد أن تمت كتابتها هي لغات السلطة الدينية أو الدنيوية. ومع هذا فالكتابة أو تدوين القواعد لا يحول دون التطور الطبيعي وإن استطاع أن يقلل أحيانا من سرعته أو يوجهه وجهة خاصة. لذا فإن استمرت اللغة المكتوبة في احترام قواعد النحو التي تصبح فيما بعد معيارية قسرية فان الاستعمال الشفوي سرعان ما يكسر كل تلك الحواجز والقيود لينطلق حرا يتطور ويتغير مسايرا في ذلك قوانين تطور اللغة الداخلية والخارجية وملبيا الحاجات الدائمة التجدد لمتكلمي هذه اللغة. ومن أجمل الصور التي استعيرت لتوضيح هذه الظاهرة مقارنة الحال التي تميز اللغة بحال النهر الذي يتجمد الماء في سطحه في الشتاء ويتوقف عن الجريان الظاهر. ولكنه يستمر في الجريان في القعر إلى أن يأتي فصل الربيع فيتكسر الجليد ويجرفه الماء المندفع من المصب. وجود أو ظهور الفروق بين اللغة المكتوبة من جهة واللهجات والاستعمالات الشفوية من جهة أخرى وتميز كل واحدة من هذه الأخيرة بصفات تخصها، من الحتميات الطبيعية التي لا سبيل إلى نكرانها. ولكن درجة هذه الفروق وتلك الخاصيات تختلف من لغة إلى أخرى باختلاف وتنوع تاريخ اللغة أو اللهجة وتنوع ظروفها المجتمعية والحضارية والبيئية.

والتمثيل ببعض ما عرفته اللغة العربية مفيد في فهم هذه المجريات التي المعنا إليها. فما اللغة العربية في الأصل (حسب علماء اللغة المحدثين) سوى إحدى بنات اللغة السامية الأم. مثلها في ذلك مثل العبرية والآرامية والكنعانية والسوريانية والفينيقية وغيرها. وقد تطورت هذه العربية عبر القرون إلى أن أصبحت لغة قائمة بذاتها. ثم بدأت القبائل المتباعدة تميز العربية في كل واحدة منها ببعض الصفات الخاصة. فمنها من اشتهرت

لهجتها بالعجعجة ومنها من اشتهرت بالعنعنة أو الكسكسة أو التلتلة أو تخفيف الهمز أو غير ذلك. وهكذا ظهر ما اصطَلح على تسميته لغويو العربية القدماء بلغات القبائل أو لهجاتها، وهي متغيّرات نفس اللغة التي لم ينقطع التواصل بينها.

ولكن هذا الحال لم يدم طويلا ولم تتعمق الفروق بفضل انتشار اللغة الفصحى لغة الشعر والخطابة والحكمة، ذلك المستوى الأدبي الذي كان تداوله مشتركا بين سائر فصحاء ومتعلمي القبائل العربية قبل الهجرة النبوية بقرون كما يبين ذلك محمد نجيب البهبيتي في مقدمة كتابه «تاريخ الشعر العربي حتى القرن الثالث الهجري». وأخبار الأسواق في الجاهلية، وأشهرها عكاظ، خير دليل على ما نقوله، فقد كان شعراء مختلف القبائل العربية يقصدون هذه الأسواق للتباري فيما بينهم بعرض ما ينظمونه على نقاد كبار ذاع صيتهم. فكان ذلك مناسبة لإغناء الفصحى وتقوية انسجامها (انظر أخبار الأسواق في «الأغاني» للأصبهاني مثلا). ومع ظهور الرسالة المحمدية دخلت اللغة العربية مرحلة جديدة من التطور نتيجة ازدهار المجتمع العربي ونتيجة ارتفاع وتيرة تقدمه سياسيا وعلميا وثقافيا وحضاريا مما أدى إلى توجيه مسيرة لغته نحو التقارب بين لهجاتها بتخلُّص كل واحدة منها تدريجيا من سماتها الخاصة بفضل كثرة اتصال واحتكاك أفراد مختلف القبائل نتيجة توحد الجميع تحت راية الاسلام والمشاركة في معارك الفتوحات وفي بناء المجتمع الجديد. وهكذا وبعد أن كانت الفصحى لغة الإبداع على الخصوص فقد أصبحت (كما أكدنا ذلك علميا في مقالة تحت عنوان «قضايا جمع اللغة في قضايا المعجم العربي»(*)) هي لغة التخاطب اليومي وسط المثقفين والحكام وكثير من القبائل التي أخِذت عنها اللغة واستشهد بأقوال أفرادها في استخراج القواعد وجمع المعجم.

إضافة إلى كل ما تقدم فقد تضافر عنصران أساسيان لتعميم الفصحى وجعلها المستوى العربي المكتوب دون سواه : أولهما المرحلة الحضارية الجديدة التي دخلها المجتمع العربي بظهور الاسلام. وثانيهما الارادة السياسية التي عملت على استخراج قواعد الفصحى لتدْوينها وجمع معجمها خدمة لكتاب الله عز وجل. وبعد مرحلة القوة والازدهار دخل المجتمع العربي المسلم مرحلة الضعف والتمزق وبرزت على السطح من جديد الفروق اللهجية، وقد دام هذا الحال على ما هو عليه قرونا إلى العصر الحديث

(*) نشرت هذه المقالة بـ «العلم الثقافي» العدد 956 (30 دجنبر 1989).

حيث تعددت وكثرت فرص الاحتكاك بين العرب من جديد وتطورت وسائل الاتصال وتعممت بينهم فبدأت الفروق اللهجية تقل من جديد بانتشار تداول الفصحى على الخصوص(3). وهكذا يمكن القول بأن العربية تتطور في شكل حلزوني يعيد ربط الصلة بين الحاضر والماضي.

فاللهجات المحلية تتطور حاليا بسرعة غير معتادة في اتجاه التوحيد. وواقع اللغة العربية هذا يؤكد نظرية الأمريكي ويليام لابوف القائلة بأن التطور اللغوي التزامني الذي نلاحظه في اللهجات المعاصرة تميل نتائجه إلى التطابق والاتساق مع نتائج التطور اللغوي التاريخي الذي تظهره اللهجات القديمة في تعاقبها عبر الزمن. لذا تتشابه اللهجات القديمة والمعاصرة في كثير من الخصائص(4).

فما عاشته هذه اللهجات العربية مثلا قبل ثلاثة عشر قرنا تقريبا، هو ما تعيشه حاليا بشكل جديد وعلى نطاق أكثر اتساعا وبسرعة أكبر. إذا كان حال اللغات في تطورها هو ما قدمناه فما فائدة دراسة اللهجات التي تصبح متجاوزة مع مرّ العصور ؟

الجواب عن هذا التساؤل يتأتى فيمايلي :

1) اللغة ضمير المجتمع المتكلم بها(5). إنها أداتُه الأولى في تنظيم محيطه ووصفه والتعبير عن علاقة أفراد المجتمع بهذا المحيط وعلاقاتهم فيما بينهم. إن اللغة سجل الذكريات والتجارب والأفكار والتأملات من حيث انها وسيلة التعبير عن كل ذلك وتخزينه في القصص والحكايات والأخبار والنكت والمستملحات والتعاليم والتوجيهات والتقاليد والعادات والأخلاق والأعراف. فمن أهم مصادر المؤرخ والانتربلوجي وعالم الاجتماع أو النفس، ودارس تاريخ الأدب وغيره الروايةُ الشفوية ولا تكون هذه الرواية عادة

(3) انظر اللغة العربية : الواقع والآفاق، عبد العزيز حليلي مجلة الموقف عدد 11 (1990).

(4) W. Labov : Sociolinguistique, Les éditions de minuit, Paris, 1976.

(5) قد يلاحظ القارئ أنني أعدد تعاريف اللغة وآتي في كل مرّة بوجهة نظر قد تظهر مخالفة لما سبقها وما سيليها. إن كل تعريف من التعاريف التي أقدمها في هذا الكتاب يبقى جُزئيا. والتعاريف الجزئية زوايا مختلفة أنظر منها لنفس الموضوع. وزوايا النظر هذه يفرضها الاختصار أولا وما أريد أن أبنيه على أساس ذلك التعريف أي ما أريد إبْرازهُ. فمن أراد أن يعرف ما اللغة في شموليتها عليه أن يجمع بين مختلف التعاريف الجزئية التي أقدم في هذا الكتاب ليكوّن صورة متكاملة عامة وجامعة لهذا الموضوع.

إلا باللغة اليوميّة الخاصة أي لهجة الراوي، ووصف ودراسة هذه اللهجة واستخراج قواعدها الصوتية والصرفية والتركيبية وجمع معجمها وسيلة أساسية للحفاظ على تراثها الحضاري الانساني. فالناس المسنُّون في مجتمعات الحضارات الشفوية خزانات حية مليئة بمختلف علوم وفنون تلك المجتمعات. فالاذكار مثلا وكذا الامداح والاشعار والحكم أو الحكايات أو الوصفات الطبية أو أساليب وطرق الطهي التي لا تسجل كتابة تضيع مع مرور الزمن واختلاف ظروف العيش وموت أصحابها أو حفاظها. لذا وجب الاسراع إلى كتابة كل ذلك والحفاظ عليه نظرا لأهميته التاريخية والحضارية. فلولا تسجيل أوزان الآلة الأندلسية رغم أن بعض شعرها بالعامية ولولا تسجيل اشعار الملحون كتابة وان كانت جميعا باللهجات الخاصة لضاع للأمة العربية تراث غني تهتزله أحاسيس الكثيرين. الاهتمام باللهجات هو اذن اهتمام بكل هذا التراث الشفوي الغني والمتنوع، والاهتمام به هو جمعه من أفواه أصحابه وتدوينه لحمايته من التلف أو البتر أو التشويه.

2) الاهتمام باللهجات غير المكتوبة إلى جانب اللغة المشتركة المكتوبة ليس بدعة في المجتمع العربي المسلم أحدثها المستشرقون، كما يحلو للبعض ان يوهم بذلك. لقد تنبه العرب المسلمون إلى أهمية دراسة اللهجات العربية — إلى جانب الفصحى — منذ بداية عصر التدوين. فبالاضافة إلى من اهتم بجمع أشعار وحكم وأقوال القبائل أو رعاة الغنم والمغنين أو الصعاليك «كالأغاني» للأصبهاني و«الفصوص» للبغدادي، هناك إشارات كثيرة ومقارنات لطيفة بين بعض ظواهر الفصحى وظواهر هذه اللهجة العربية أو تلك عند لغوي العربية القدماء كالخليل وسيبويه والمبرد الذين يذكرون بعض الاختلافات اللهجية مع الفصحى في الأصوات (كموضوع تحقيق الهمز) أو في الصرف (كموضوع الأسماء الثنائية الأصل) أو في التركيب (كموضوع «ان هذان لساحران») وكالفصل في كل هذه المستويات بين ما هو قياسي وبين ما يحفظ ولا يقاس عليه أو ما يسمى بالضرورة الشعرية أي ما لا يجوز العمل به من قواعد لغوية الا في الشعر. وفي علم القراءات القرآنية دراسات لهجية مفيدة. ومن جهة أخرى فقد خصص بعض القدماء فصولا من مؤلفاتهم لاستعراض أنواع اللحن التي كانت سائدة في عصرهم من مثل الجاحظ وابن جني وغيرهما. وكَتَب البعض الآخر مصنفات وكتبا ضخمة في اللحن «كلحن العامة» للزبيدي «وتثقيف اللسان وتلقيح الجنان» لابن مكي.

واللحن ـــ كما سنذكر[6] ـــ منه ما هو مظاهر تطور طبيعية ومنه ما هو استعمالات لهجية خاصة ومنه ما هو نتيجة اختلاط العربية بغيرها من اللغات المجاورة كالفارسية والرومية أو السريانية والعبرية والبربرية وغيرها من لغات الجهات التي فتحها المسلمون.

الاهتمام باللهجات العربية ـــ أي بالشفوي إلى جانب الكتابي ـــ قديم في الحضارة العربية الاسلامية وإن كان هدف هذا الاهتمام لا يوافق (في الظاهر على الأقل) هدف اللغويين والمعاصرين.

والحديث عن الكتابة عن اللحن تمهد لانتقالنا للحديث عن الموضوع الأخير في هذا العرض فالبحث في اللحن وجمع حالاته وتصنيفها كان الهدف منه قديما التنبيه إلى ضرورة تجنبه وتجنيب المتعلمين الوقوع فيه. الهدف من دراسة اللحن قديما هدف تربوي تعليمي اذن. ومن أهداف الدراسات اللهجية المعاصرة تطوير أساليب تلقين اللغات بتحسين مناهج وطرق تعليمها.

ولكن، لابد قبل ذلك من الاشارة إلى أن المقارنة بين المكتوب والشفوي من نفس اللغة تلعب دورا أساسيا في رصد تطور هذه اللغة وتبيين اتجاه ذلك التطور وتحديد العناصر المؤثرة فيه. كما أن هذه المقارنة تساعد على فهم وتفسير مظاهر نظام المكتوب بالشفوي وهذا الأخير بالمكتوب كما بينا في الرسالة التي قارنا فيها بين العربية الفصحى المكتوبة والعربية الفاسية غير المكتوبة[7].

3) من أهداف الدراسات اللهجية المعاصرة تطوير أساليب تعليم اللغات كما قلنا إذ يلاحظ مدرس اللغات بالمغرب وبغيره من الدول الأخرى انه لا يحصل في ميدانه هذا إلا على نتائج ضعيفة تبقى دائما دون مستوى آماله سواء اعتمد الطريقة السمعية البصرية الحديثة في تعليمه أم اعتمد الطريقة التقليدية المباشرة. ومن بين المشاكل الأساسية التي يواجهها هذا المدرس ما يطرحه موضوع اللغة الواصفة أو الميتالغة. ويمكن الاستفادة من هذا المجال من نتائج الدراسات اللسانية المعاصرة في ترويض وتبسيط هذه اللغة الواصفة بتخليصها من كثير من تعقيدات الدراسات النحوية التقليدية.

---

(6) أنظر «قضايا جمع وتقعيد العربية» أسفله.

(7) A. Hilili : Contribution à l'étude fonctionnelle de l'arabe. L'arabe classique et l'arabe fassi, thèse d'état, Paris 3, 1987.

ولكن أكبر العقبات التي تواجه مدرس اللغات هي التداخل والخلط الذي يقع للمتعلم بين قواعد اللغة الأم التي يمتلك قواعدها بكيفية فطرية وضمنية وغير واعية وقواعد اللغات التي يقبل على تعلمها. والفرق يوجد دائما وان بدرجة أقلّ بين المكتوب والشفوي وبين اللهجات الدارجة على ألسنة الناس وبين الفصحى التي حال دون تطور قواعدها التقعيد المعياري. ولقد تنبه كثير من اللسانيين وبعض علماء التربية أخيرا إلى أن أنجع علاج لمعضلة التداخل والخلط هذه هو اعتماد اللغة الأم في تفسير وتعليم اللغات الأخرى، وهو موضوع يتفق فيه التوليديون والوظيفيون على حد سواء، فهذا التوليدي اكريفسكي مثلا يقول بأن «تعليم لغة أجنبية ما يعني مساعدة التلميذ على بناء نحو داخلي ثان يمكّن المتعلم ــ كنحو لغته الأم ــ من فهم وإنتاج عدد لامتناه من نصوص تلك اللغة الأجنبية... ولذلك فإنه قد حان أوان استعمال اللغة الأم كوسيلة تساعد على مقاربة اللغات الأجنبية بسهولة أكبر» (Langage n° 39). كما يلاحظ رائد الوظيفية البنيوية اندري مارتيني ان اللغات تبقى مختلفة دائما رغم كل المحاولات التي تبذل للبحث عن القواعد العامة المشتركة بينها جميعا ويلاحظ من ناحية أخرى أن النتائج التي تُوصِل إليها الطرق السمعية البصرية في تعليم اللغات ليست بأفضل من الطرق المباشرة التقليدية، لذا فلا سبيل في نظره لعلاج هذا الداء المزمن والمتمثل في قصور طرق تدريس اللغات عن أن تفي بالغرض منها «الا بمقارنة اللغة التي نريد تلقينها باللغة الأم للمتعلم، وتفسير هذه المقارنة وتوضيح المؤتلف والمختلف بين اللغتين تدريجيا وبحسب سن ودرجة ذكاء هذا المتعلم» (La parler et l'écrit 67)[8]. وهكذا فإذا كان أسلوب المقارنة يساعد (منذ زمن طويل) على دراسة علاقات القرابة بين اللغات، وفهم وتفسير كيفية اشتغال أنظمة هذه الأخيرة فيجب أن يساعد هذا الأسلوب أيضا على تسهيل تلقين تلك اللغات وان يعين المدرِّس المعاصر على تجاوز العقبات التي يواجهها بسبب الاختلافات الموجودة حتما بين قواعد اللغة أو اللهجة الأم واللغات الأخرى (وان كانت هذه الأخيرة واللهجة الأم من نفس المجموعة أو الأسرة اللغوية)، وبسبب اختلاط هذه القواعد في ذهن التلميذ عند عملية تعلم هذه اللغة أو تلك.
وصف الأنظمة الشفوية العربية أي اللهجات وعقد المقارنة بين أنظمتها الخاصة وبين نظام الفصحى أو غيرها من اللغات الطبيعية على سائر المستويات الصوتية والصرفية

---

(8) نشرت هذه المقالة ضمن كتاب : De la théorie linguistique à l'enseignement des langue. de J. Martinet ; P.U.F., Paris, 1972.

والتركيبية خطوات أساسية في وضع مؤلفات تدريس اللغات عندنا مستقبلا، إذ لابد من تزويد المدرسين بمراجع يتم فيها عقد المقارنة بين اللهجة الأم للمتعلم وبين اللغة المراد تعليمها له ولا مناص من توضيح المؤتلف من القواعد والمختلف منها ليسهل على المدرس تجاوز مشاكل تداخل القواعد والخلط بينها في ذهن المتعلم وحتى يخصص لكل درس ما يستحقه من الشرح والتوضيح فيمر مرًّ الكرام على القواعد المؤتلفة السهلة الاستيعاب ويقف طويلا عندما يخالف المعتاد ويخصه بالعناية اللازمة والوقت اللازم.

دراسة اللهجات ودراسة المظاهر الشفوية من اللغات المكتوبة وعقد المقارنة بين هذه وتلك أصبحت ضرورية أكثر من أي وقت مضى بعد أن اتضحت فوائدها العلمية والعملية والتربوية المتعددة والتي استعرضنا مجملها في هذا العرض دون الاحاطة بها جميعا. ومن بين ما أهملناه الاشارةُ إلى أهمية هذه الدراسة في توضيح الفرق بين الاستعمالين الشفوي والكتابي وما يختص به كل واحد منهما في نفس اللغة، إذ تساعد هذه الدراسة على توضيح مفهوم نقدي أساسي هو مفهوم الانزياح وهو ما يميز اللغة الشعرية عن اللغة العادية ويجعل من الأولى لغة الابداع. والبحث اللهجي أساسي في تتبع تاريخ تطور اللغات وأنظمتها على مستوى تعاقب الأزمنة وتنوع واتساع الأوطان وتعدد الناطقين واختلاف أصولهم، وكذلك وضع الخرائط اللسانية ورسم الحدود بين مختلف اللغات ولهجاتها أو ما يسمى بالجُغرافية اللسانية. ومن المفيد الاشارة في هذا الباب الأخير إلى كتاب المقديسي «احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» الذي يحاول فيه هذا المؤلف العربي القديم التمييز بين أقاليم العالم الاسلامي من الوجهة اللغوية.

قضايا جمع وتقعيد اللغة

يقتضي الحديث عن الأسس والقواعد التي اعتمدها لغويو العربية الأوائل في جمع وتقعيد هذه اللغة الإشارة، ولو بإيجاز، إلى تاريخ نشأة علم النحو ليسهل فهم تلك الأسس.

يشمل النحو بمعناه العام الشائع في الثقافة العربية مختلف مستويات الدرس اللغوي المعروفة من أصوات وصرف وتركيب. وقد حظي موضوع تاريخ ظهور هذا العلم وأول من ألف فيه وسنَّ قواعده الأولى بعناية كثير من العلماء القدامى من مثل المبرد والسيوطي وياقوت الحموي والزبيدي، والجدد من مثل شوقي ضيف وتمام حسان وفخر الدين قباوة. وقبل ذكر أهم الآراء التي وردت في هذا الموضوع والحكم لأحدها، لابد من التذكير بأمرين أساسيين سيساعدان على فهم الرأي الذي سنأخذ به هنا.

أول هذين الأمرين ما كانت تتميز به الدراسات الإنسانية عامة في مرحلة بدءها الأول، حيث كان العلماء يجمعون في مؤلفاتهم بين عدة مواضيع يتعرضون لها استطرادا، بهاجس الإحاطة والشمول، وهم يتناولون موضوعهم الرئيسي. وفيما يخصنا، نجد عند الفلاسفة إشارات وتحليلات لغوية ونجد نفس الشيء عند المناطقة وعلماء الكلام والفقهاء والأصوليين والمحدِّثين والمفسرين كما نجد إشارات وتحليلات لغوية مفيدة عند علماء الفيزياء والطب والموسيقى وهكذا دواليك. وهي ظاهرة عامة لا تخص الثقافة العربية وحدها بل تشمل مختلف الثقافات الإنسانية القديمة. ولكن ما نبْحث فيه هنا ليس هي تلك الإشارات العارضة بل المراد هي المؤلفات المتخصصة في النحو.

ثاني الأمرين يخُص ظاهرة اللحن في المجتمع العربي الإسلامي.

ظهر اللحن ــ بمعنى الخروج عن قواعد اللغة الأم التي يعرفها الفرد المتكلم بالفطرة ــ منذ عهد الرسول محمد ﷺ، وكان الخطأ يقع في نطق الأصوات وفي بنية

الكلمات وفي تركيب الجمل على السواء. وزادت هذه الظاهرة تفشيا وانتشارا مع مرور الزمن وتكاثر فرص احتكاك العرب بغريهم من الأقوام نتيجة اتساع رقعة الدولة الإسلامية وتزايد عدد المتعربين. وتناول كثير من علماء العربية هذا الموضوع. ومنهم من أفرد له أبوابا وفصولا مستقلة في كتبه ومنهم من خصه بمؤلفات كاملة. وهكذا أفرد الجاحظ مثلا قسما مهما من كتابه المشهور «البيان والتبيين» لموضوع اللحن، ففصل فيه القول كثيرا ونوع فيه الأمثلة فتعرض للحن العامة والخاصة وللحن العرب والمتعربين على السواء. ومن بين الأمثلة التي ذكرها الجاحظ في هذا الباب : كان صهيب بن سنان النمري صاحب رسول الله يرتضخ لكنة رومية فيقول : «إنك لهائن» يريد «لحائن»، أي هالك، وكذلك كان شأن بعض الصحابة في إبدال الحروف كبلال الحبشي وسليمان الفارسي. وأنشد الشاعر سحيم الخليفة عمر بن الخطاب قصيدته التي مطلعها :

عُميرةَ ودّع، إن تجهّزت غازيا، كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا

فقال له عمر : لو قدمت الإسلام على الشيب لأجزتك. فقال له ما سعرت (بالسين) يقصد ما شعرت. وغلط الحسن البصري في جمع شيطان فكان يقول : «وما تنزلت به الشياطون» فصرف جمع شيطان تصريف جمع المذكر السالم. وذكر صاحب «البيان والتبيين» كذلك أن يوسف بن خالد السمتي (توفي سنة 190هـ) قال يوما لعمرو بن عبيد : ما تقول في دجاجة ذبحت من **قفائها** ؟ قال عمرو : أحسن. قال : من **قفاؤها**. قال : أحسن. قال من **قفاءها**. قال عمرو : ما عنّاك بهذا ؟ قل من قفاها واسترح. (ويقال عن الدجاجة المذبوحة من قفاها أقفن أو مقفونة).

ننتقل بعد هذا التذكير إلى استعراض أهم الآراء المقدمة في موضوع نشأة علم النحو في الثقافة العربية وهي كالتالي :

أ) ذهب أحمد بن فارس في كتابه «الصاحبي» مذهبا متطرفا حيث جزم بأن اللغة العربية وعلومها توقيف لا اصطلاح واختراع علمهما الله لآدم في البدء. ومن بين ما قاله في هذا الموضوع : «فإن قال قائل فقد تواترت الروايات بأن أبا الأسود أول من وضع العربية وأن الخليل أول من تكلم في العروض ! قيل له : نحن لا ننكر ذلك بل نقول إن هذين العلمين كانا قديما وأتت عليهما الأيام وقلا في أيدي الناس ثم جددهما هذان

الإمامان»[1].

ب) ذهب كثير من المتقدمين من أمثال المبرد وابن جني وياقوت الحموي وابن النديم والجرجاني وغيرهم إلى القول بأن أبا الأسود الدؤلي هو واضع علم النحو، وقد أخذه عن الخليفة علي بن أبي طالب. ويحتج من أخذ بهذا الرأي بما يروى عن أبي الأسود نفسه حيث قال : «دخلت على أمير المومنين علي بن أبي طالب، عليه السلام، فرأيته مطرقا يفكر. فقلت : فيم تفكر يا أمير المومنين ؟ قال : إني سمعت ببلدكم هذا لحنا، فأردت أن أضع كتابا في أصول العربية. فقلت : إن فعلت هذا ياأمير المومنين أحييتنا وبقّيْت فينا هذه اللغة. ثم أتيته بعد أيام فألقى إليَّ صحيفة فيها : «بسم الله الرحمن الرحيم. الكلام كله اسم وفعل وحرف. والاسم ما أنبأ عن المسمى. والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل. ثم قال لي : تتبعه وزد فيه ما وقع لك... قال فجمعت منه أشياء وعرضتها عليه... وكنت كلما وضعْت بابا من أبواب النحو عرضته عليه رضي الله تعالى عنه إلى أن حصلت ما فيه الكفاية. فقال ما أحسن هذا النحو الذي قد نحوت»[2].

ويذكر قباوة أن ابن النديم قد وقف على نسخة خطية عتيقة لمؤلف أبي الأسود عنوانها : «هذه فيها كلام في الفاعل والمفعول عن أبي الأسود رحمة الله عليه بخط يحيى بن يعمر» (ابن عصفور والتصريف، ص 16).

ج) واعتبر لغويون آخرون أن واضع علم النحو العربي هو الخليل بن أحمد الفراهيدي أستاذ سيبويه. ومن المحدثين الذين أخذوا بهذا الرأي ودافعوا عنه محاولين البرهنة على أن أبا الأسود إنما وضع أول نقط يحرر حركات أواخر الكلمات في القرآن الكريم ليس إلّا، شوقي ضيف في كتابه «المدارس النحوية» ومن بين ما يقوله في هذا الباب : «وكان طبيعيا أن أبدأ بالمدرسة البصرية... وقد تقدمت البحث فيها بتصحيح خطإ شاع وذاع قديما وحديثا وهو ما ينسب إلى أبي الأسود الدؤلي وتلاميذه من وضع بعض مبادئ النحو، وهي إنما بدأت توضع مع الجيل التالي عند ابن أبي إسحق الحضرمي... وقد ذهبت إلى أن الخليل بن أحمد الفراهيدي هو المؤسس الحقيقي

(1) الصاحبي ص 8 وما بعدها، القاهرة، 1910.
(2) انظر : شوقي ضيف، المدارس النحوية، ط 3. ص 14، دار المعارف بمصر، 1968.
— فخرالدين قباوة، ابن عصفور والتصريف، ص 15 دار الأصمعي بحلب، 1971.

لمدرسة البصرة النحوية ولعلم النحو العربي بمعناه الدقيق، وصورت في تضاعيف ذلك إقامته لصرح النحو بكل ما يتصل به من نظرية العوامل والمعمولات وبكل ما يسنده من سماع وتعليل وقياس سديد» (المدارس النحوية، ص 5).

تمثل الآراء الثلاثة التي اقتضبنا الحديث عنها فيما تقدم أهم ما ذُكِر في موضوع نشأة وتدوين النحو في الثقافة العربية. وهي آراء تظهر النصوص التي أوردناها هنا تَناقضَها واختلافَهَا البيّن في هذا الباب. فمن الدارسين من يرد ظهور علم النحو إلى ما قبل العصر الجاهلي ومنهم من يعتبر أن مؤسسهُ الحقيقي هو الخليل الذي عاش في القرن الثاني للهجرة وتوفي سنة 175هـ. وسنناقش هذه الآراء في ضوء الملاحظتين اللتين ذكرناهما في البداية.

ــ ينطلق ابن فارس من التوقيف كمسلَّمة للقول بقدم علم النحو. وهو رأي فيه نظر ولكننا لن ندخل مع صاحبه في جدل حول موضوع أصل اللغة (وأصل نحوها) أهي توقيف أم اتفاق لأننا لن ننتهي إلى نتيجة مفيدة وحاسمة لذا نكتفي بالاشارة فقط إلى أننا لا نملك ما يرجح ظهور علم النحو قبل العصر الإسلامي. فالمهتمون بتاريخ العرب وبثقافتهم لم يعثروا حتى الآن على ما يمكن اعتماده للقول بظهور هذا العلم قبل عصر التدوين. بل إن كثيرا من الدارسين ينسبون وضع مصطلح «نحو» في العربية للخليفة الراشدي علي بن أبي طالب.

ــ يعتمد شوقي ضيف في تفنيد الرأي القائل بأن أبا الأسود هو واضع علم النحو على الطعن في صحة ما رواه بعض الأقدمين في هذا الباب. ويصف كل ذلك بأنه «من عبث الرواة الوضاعين المتزيدين، وهو عبث جاء من أن أبا الأسود نسب إليه حق وضع العربية فظن النحاة أنه وضع النحو» ص 16. وهو ــ في رأي شوقي ضيف ــ إنما وضع علامات الحركات في العربية بمساعدة كاتب قال له أبو الأسود : إذا رأيتني قد فتحت شفتي بالحرف فانقط نقطة فوقهُ على أعلاه، وإن ضممت شفتيَّ فانقط نقطة بين يدي الحرف، وإن كسرت شفتيَّ فاجعل النقطة من تحت الحرف، فإن أتبعتُ شيئا من ذلك غنّة فاجعل مكان النقطة نقطتين» (انظر المحكم في نقط المصحف للداني). وما احتج به شوقي ضيف في هذا الباب يضعف أمام شبه إجماع القدماء والمحدثين على أن أبا الأسود هو واضع علم النحو الأول مع علي بن أبي طالب. ويقوي جانب أصحاب هذا الرأي ما ذكرناه في بداية هذا البحث عن التأليف

في النحو وعن ظاهرة اللحن التي برزت إلى الوجود في عهد الرسول الأعظم ﷺ، وخوف المسلمين على القرآن من الضياع أو الفساد ودخول اللحن إليه منذ عهد الخليفة الأول أبي بكر الصديق. كما يزكي هذا الرأي ما يذكره المؤرخون عن تسابق أول الداخلين في الإسلام من غير العرب إلى تعلم لغة القرآن مما أدى إلى تنشيط حركة التعليم وإرسال الأبناء إلى البادية لأخذ اللغة من نبعها الصافي. ويزكيه كذلك شهادات القدامى الذين اطلعوا على مخطوط مؤلف أبي الأسود ووصفوه في كتبهم.

إذن لاشك أن أبا الأسود الدؤلي الذي عاش في القرن الأول للهجرة هو أول من خصَّ قواعد العربية بمؤلف مستقل. يقول الزبيدي عن أبي الأسود[3]. «هو أول من استن العربية ونهج سبيلها ووضع قياسها وذلك حين اضطرب كلام العرب وصار سراة الناس ووجوههم يلحنون فوضع باب الفاعل والمفعول به والمضاف وحروف النصب والرفع والجر والجزم». وبذلك فتح طريق البحث والتأليف في هذا الموضوع لمن جاءوا بعده من اللغويين ومنهم الخليل الذي تجند لإقامة صرح أهم علوم العربية وهي : المعجم والنحو والعروض. وقد أقام هذا الصرح بالاعتماد على أعمال سابقيه وهم كثر يمكن التعرف عليهم بالرجوع إلى كتب طبقات النحاة.

ننتقل، بعد هذا الحديث المقتضب عن تاريخ نشأة علم النحو في الثقافة العربية، إلى البحث في الأسس والقواعد التي اعتمدها النحاة والمعجميون في وصف هذه اللغة وجمع مفرداتها. وننطلق في ذلك من استعراض ومناقشة ما قاله الدارس عبد العلي الودغيري عن أسلوب القدامى في ذلك.

من المواضيع العلمية الهامة التي تناولها د. عبد العلي الودغيري في القسم الأول من كتابه «قضايا المعجم العربي»[4] موضوع جمع اللغة وتكوين المتن (corpus) وتحديد

---

(3) طبقات النحويين واللغويين ص 13، تحقيق أبي الفضل إبراهيم، القاهرة، طبعة 1954.

(4) قضايا المعجم العربي في كتابات ابن الطيب الشرقي. ويقع الكتاب في 461 صفحة من الحجم المتوسط طباعته جيدة وهو من منشورات عكاظ، 1989. يتألف هذا الكتاب من ثلاثة أقسام كبيرة عنوان الأول منها «اللفظ ومستواه الصوابي من خلال (موطئة الفصيح)» من الصفحة 11 إلى الصفحة 94. وعنوان القسم الثاني هو «ابن الطيب وصناعة القاموس من خلال (الاضافة) من ص 95 إلى ص 342. اما عنوان القسم الثالث والأخير فهو «ابن الطيب والحركة المعجمية بالمغرب والمشرق من ص 343 إلى ص 425. كما أن المؤلف مذيل =

مصادره زمانيا ومكانيا. وقد أعطى المؤلف نظرة شاملة عن آراء لغوي العربية المتقدمين وعن أساليب بحثهم في هذا الباب فذكر مثلا كيف حدد هؤلاء المجال الجغرافي والتاريخي وكيف عرفوا الراوي بذكر شروطه كما ذكروا شروط اعتماد النصوص المأثورة شعرا ونثرا وخلص إلى القول في هذا الموضوع بأن «الذين وضعوا (عرف) اللغة العربية الفصحى وقعدوا قواعدها قد استخدموا منهجا معياريا يمكن أن يوصف في آن واحد بأنه انتقائي وتلفيقي وتفاضلي...»(5) كما قال في موضوع اللغة ورواتها العرب بأن «الثابت الذي لا جدال فيه أن الذين دونوا اللغة العربية وقعدوها لم يكتفوا بالمستوى الأول وهو اللغة الأدبية : لغة الشعر والخطابة والمواثيق... بل أضافوا لذلك ما جمعوه من أفواه الأعراب إذ قصدوهم في بواديهم واكثروا من النقل عنهم والتسجيل لكلامهم حتى أصبحت كلمة (الفصاحة) إذا أطلقت انصرف الذهن مباشرة إلى التفكير في لغة الأعراب تركيبا ومعجما وبلاغة أسلوب...»(6) وقد انتقد المؤلف أساليب بحث المتقدمين هذه في اللغة وحاول البرهنة على خطإها، وجعلها أصل «عدم انسجام قواعد العربية» التي نجدها في كتبهم. وختم كلامه في هذا الباب بأن قدم وجهة نظره في كيفية استخراج قواعد العربية وجمع معجمها فقال : «اذن نحن نؤيد — في العموم — الرأي القائل بأن الفصحى كان ينبغي أن تقعد على أساس هذه اللغة الأدبية والثقافية التي نزل بها القرآن ودون الحديث وكتب الشعر وماثور كلام العرب. وهناك اختيار آخر كان في نظرنا أيضا صالحا للأخذ به وهو وضع الفصحى على أساس فرض لهجة معينة والعمل على تعميمها. فهذا وان كان في نظر علم اللغة الحديث محظورا للأسباب المبسوطة سابقا إلا أنه أهون من الجمع بين لهجات ومستويات متعددة، لأنه لن يؤدي — مهما كان — إلى النتائج السلبية الكثيرة التي أدى إليها النهج الذي اتبع

= بكشاف للمصادر والمراجع العربية وبآخر للمصادر الأجنبية. وهو دراسة علمية جادة لقضايا المعجم عامة والعربي خاصة انطلاقا من كتابين لابن الطيب الشرقي المغربي هما (موطئة الفصيح لموطأة الفصيح) وهو شرح لارجوزة ابن المرحل المساماة (موطأة الفصيح) التي ما هي سوى نظم لكتاب (فصيح ثعلب) المشهور. أما الكتاب الثاني لابن الطيب فهو (اضافة الراموس وإضافة الناموس على اضاءة القاموس) وهو حاشية على (القاموس المحيط) للفيروزبادي.

(5) عبد العلي الودغيري : قضايا المعجم العربي، ص 54 عكاظ، الرباط، 1989.

(6) عبد العلي الودغيري .نفسه ص 48.

بالفعل وهو الخلط بين لغات ومستويات مختلفة»[7] وهو رأي فيه نظر سنعود إليه بعد ان نناقش أساليب الأقدمين في جمع اللغة. ونبدأ بذكر بعض العناصر الأساسية التي تدخل في تعريف اللغة الطبيعية عند دوسوسير[8] والتي لها ارتباط وثيق بما نحن بصدده هنا. اللغة نظام (وليست مجرد لائحة من الكلمات) تؤلّف أداة التواصل الأولى بين مجموعة بشرية قد يكبر عدد أفرادها وقد يصغر، وهي تصور للواقع وتنظيم للتجارب، وهي بهذا المعنى ذخيرة اجتماعية لا يمتلكها الفرد الواحد بل هي ملك عام. لذا كان الاقتصار في وصف قواعدها وجمع معجمهما على رواية واحد أو عدد قليل من الرواة (informateurs) عملا غير علمي ولا كاف لأنه يمنع من **الاحاطة والشمول والاستقصاء** لدقائق الأمور وجزئياتها. وعليه لما أراد لغويو العربية استخراج قواعد هذه اللغة وجمع ألفاظها حاولوا أن تكون المتون (corpus) التي اعتمدوها في ذلك غنية متنوعة وشاملة لمختلف استعمالات العرب الذين أخذوا عنهم اللغة. فالحرص على الاستقصاء والرغبة في الشمول هي التي جعلت لغويينا المتقدمين يجمعون، في ما اعتمدوا عليه من متون، بين الشعر الجاهلي والاسلامي والأقوال والحكم المأثورة وبين القرآن الكريم ولهجات القبائل المشهورة التي كانت تعيش وسط الجزيرة العربية بعيدا عن كل تأثير أجنبي. وكان النموذج المحتذى والمثال الأعلى في كل ذلك هو لغة الأعراب أي اللغة الحية المنطوقة في وسطيها الاجتماعي والبيئي الطبيعيين، اللغة الخالصة الخالية من التكلف والتصنيع أو الانحراف والخلط أو الخروج عن الفطرة والتلقائية. وقد كان لغويو العربية بهذا بنيويين قبل رواج البنيوية بأكثر من ثلاثة عشر قرنا، وكان الأولون منهم وصفيين أمناء في نقل ما يسمعونه ويلاحظونه ولم تظهر المعيارية إلا في مرحلة تأليف أمّهات كتب النحو واللغة. وظهور المعيارية مبرر تفسره أسباب دينية وتعليمية معروفة : فازدهار اتصال واحتكاك العرب بغيرهم من الأمم واقبال المسلمين من غير العرب على تعلم لغة القرآن وإقبالهم على التحدث والكتابة بها أدى إلى ظهور اللحن على ألسنة العامة والخاصة حتى من بين العرب الاقحاح[9] فخاف أئمة

---

(7) عبد العلي الودغيري : نفسه، ص 75—76.

(8) — F. De Saussure : Cours de linguistique générale p.p. 97, 112, 127, Ed. Payot, Paris, 1975.

(9) انظر مثلا الجاحظ البيان والتبين ج 2، وكذا الأمثلة المذكورة أعلاه.

المسلمين وعلماؤهم من تأثر كتاب الله بكل ذلك فدعوا إلى استخراج قواعد اللغة وجمع معجمها للحفاظ عليها ولاستعمالها في تعليم العربية. ولاشك أن الخليفة علياً ابن أبي طالب كان من أوائل الداعين إلى ذلك كما أشرنا منذ قليل.

ولكن أية عربية ؟ مثل هذا التساؤل هو الذي دفع د. عبد العلي الودغيري إلى تأييد الرأي القائل بأن الاقتصار على اللغة الأدبية أو لهجة معينة و«وضع قواعد الفصحى على أساسها». وهو رأي موضوعي وصحيح من وجهة النظر العلمية المجردة. ولكنه في حاجة إلى الفحص والفرك والتدقيق عندما يتعلق الأمر بلغة بعينها. فمن اللغات ما هي موحدة واحدة ومنها ما هي متفرعة إلى لهجات قد يرتفع الاختلاف بينها إلى درجة جعل التواصل فيما بينها صعبا[10]. وقد يكون هذا الاختلاف وهذا الفرق بسيطا بحيث تكون هذه اللهجات مجرد متغيرات (variantes) لنفس اللغة. فكيف كان حال العربية الفصحى ساعة إقبال اللغويين على استخراج قواعدها وتدوين ألفاظها ؟ لقد قدم د. عبد العلي الودغيري مجموعة من عناصر الجواب عن هذا السؤال عند حديثه عن أصل الفصحى فذكر الرأي القائل بأن الأصل هو لهجه قريش والرأي القائل بأنه مستوى أدبي يأخذ من مختلف اللهجات العربية والرأي القائل بأنه اصطناعي[11]. ولكنه لم يهتم بالبحث عن وضعية هذه الفصحى عندما كان اللغويون يصفونها. لقد بدأت الفصحى تغزو ألسنة الناس من مختلف القبائل العربية منذ عهد الرسول ﷺ وبدأت الفروق اللهجية تقل تحت تأثير القرآن ولغة أقوال وأحاديث الرسول ﷺ التي نقلت جميعها بعربية فصحى. كما بدأ اللحن يظهر على ألسنة المسلمين من غير العرب على الخصوص وظهر اللحن على ألسنة المولدين وبعض العرب الحضريين فيما بعد نتيجة الاختلاط (وهذا الصنف الأخير من اللحن هو نوع من التطور الطبيعي في حقيقة الأمر، ولكنه كان سيؤدي إلى خلق حاجز بين لغة القرآن وأحاديث الرسول من جهة واللغة اليومية من جهة أخرى كان سيكبر بانتظام مع مرور الزمن وتغيُّر الأحوال لولا قدسية لغة القرآن وتجند لغوي العربية لإيقاف هذا المد بوضع القواعد الإلزامية المعيارية). والحديث عن بروز اللحن في عصر تدوين العربية يعني، من بين ما يعنيه، انتشار استعمال الفصحى في ذلك الوقت وتحولها إلى لغة يومية في حواضر وبوادي وسط شبه

(10) A. Martinet : Eléments de linguistique générale, Armand Colin, Paris, 1980, p : 30

(11) عبد العلي الودغيري : نفسه، ص 54.

الجزيرة العربية وشمالها ودروجها على ألسنة الناس. فاللحن خروج عن قواعد الفصحى ؛ وانتشاره دليل على انتشار واستعمال هذه الفصحى (مع استمرار وجود الفروق الطبيعية التي تميز اللغة الأدبية عن اللغة اليومية في سائر اللغات الانسانية).

هذه إذن مرحلة مهمة في تاريخ تطور اللغة العربية ولهجاتها تميزت بالتوحيد. وقد وقف عندها العالم الألماني جوهان فوك (Fück) في كتابه المشهور «العربية» وأطال فيها النظر وبيّن كيف أن الفصحى قد أصبحت لغة التخاطب اليومي عند العرب أيام الأمويين والعباسيين على الخصوص، وقلت أو انمحت ـــ نتيجة ذلك ـــ الفروق اللهجية التي كانت معروفة قبل مجيء الاسلام(12). وتفتت بعد ذلك الخلافة العباسية فتفتت معها العربية من جديد إلى لهجات(13). ومايهمنا من كل ما ذكره فوك في هذا الموضوع هو أن الفصحى ـــ كما قلنا ـــ كانت هي اللغة اليومية أيام جمع العربية وتدوين قواعدها. فكانت الفروق بين استعمالات القبائل ضئيلة لا أثر لها على النظام كما كان الفرق بين لغة التخاطب ولغة الشعراء والكتاب والخطباء أسلوبية بلاغية لا غير. فكان جمع اللغويين المتقدمين بين الاشعار القديمة وأقوال الأعراب والنصوص القرآنية... واعتمادها جميعا في نفس الآن لوصف قواعد الفصحى وترتيب معجمها عملا علميا شموليا يهدِف إلى الاحاطة بأدق الجزئيات وأقلها شانا. **وما كان الاكتفاء باللغة الأدبية فقط أو استعمال قبيلة بعينها فقط ليضمن** الاستقصاء التام نسبيا. فما كل ما تعرفه وتسميه هذه القبيلة بمعروف أو مسمى في القبيلة الأخرى، فالعادات والتقاليد وكذا التجارب تختلف وما كان كل ما هو مستعمل في الخطاب اليومي مقبولا في الشعر أو الخطابة مثلا. «فاللغة ذخيرة اجتماعية لا يمتلكها الفرد الواحد» فمعجم الراعي غير معجم الطبيب ومعجم هذا الأخير غير معجم الفقيه أو الحدّاد وهكذا دواليك. ومع هذا كله فقد كان لغويونا المتقدمون دقيقين في عملهم فحددوا مجال أخذ اللغة(14) تجنبا للخلط والتضارب والتناقض وجعلوا لغة الأعراب الفيصل الذي يحتكمون إليه ويقدمونه على سواء حتى أصبحت كلمة (فصاحة) ـــ كما يقول د. عبد العلي الودغيري. إذا اطلقت انصرف الذهن مباشرة إلى لغة الاعراب..» وهكذا لم يكن

---

(12) J. Fück : arabiya, p : 9 et suite. Ed. Marcel Didier. Paris, 1955.

(13) انظر : اللغة العربية : الواقع والآفاق.

(14) عبد العلي الودغيري : نفسه، ص 153 وما بعدها.

عمل لغوي العربية لا انتقائيا ولا تلفيقيا ولا تفاضليا وإنما كان علميا **مضبوطا يميِّزه الانسجام التام ويطبعه المنطق ويخيم عليه هاجس الشمول والكمال.**

بقيت قضية أخرى لابد من اثارتها هنا تتعلق باختلاف لغوي العربية المتقدمين حول تحديد المستوى الصوابي عند جمع العربية واستخراج قواعدها. وخير ما يلخص ما ذكره د. عبد العلي الودغيري في هذا الباب الفقرة التالية : «ومن خلال الجمع بين الآراء والمقابلة بين وجهات النظر وشتى الاختيارات وقع توضيح أمر جوهري وهو أن المستوى الصوابي لم يكن أمرا محددا بين العلماء العرب، وليس مرجعه إلى شيء متفق عليه. فما اعتبره هذا فصيحا جعله ذاك مقابلا للفصيح، وما خطأه واحد صوّبه آخر وما وضعه الأول في أعلى سلم الفصاحة أنزله الثاني إلى أوسط السلم أو أدناه وإذا أخذ بعض بمعيار الكثرة والشهرة دلالة على الفصاحة فغيره يأتي بنقيض ذلك. وإذا قال أحدهم ان لغة الحجاز هي الصواب قال الآخر ان لغة تميم ليست هي الخطأ[15]. وكأني (عند قراءة هذا الاستنتاج) بمعاجم العربية وكتب نحوها التي جمع فيها المتأخرون ــ أمثال ابن يعيش والاستربادي ــ أقوال المتقدمين خليط من الآراء المتناقضة المتضاربة التي لا جامع بينهما. وكأني بلغويينا المتقدمين لا موحِّد بينهم كل يتغنى بليلاه التي تختلف عن ليلى جاره فإذا قال أحدهم إن لغة الحجاز هي الصواب قال الآخر إن لغة تميم ليست هي الخطأ وكأن نظام العربية أنظمة متعددة وليست نظاما واحدا فما خطأه واحد صوبه آخر فلا اتفاق في جمع المادة اللغوية وحصر مجال النبع ولا تكامل في أساليب البحث وضبط قواعد العربية ومعجمها. وهو كلام فيه بعض التسرع، والوقائع التاريخية تؤكد عكسه. لقد توسع بعض اللغويين في الرواية وفي القياس وتشدد البعض الآخر واختلف الأوائل كذلك في تحديد بعض المصطلحات النحوية وما يتصل بها من العوامل والمعمولات ــ كما هو معروف ــ مما أدى إلى ظهور المدرستين المعروفتين : الكوفة والبصرة ــ على الخصوص ــ نتيجة ما كان بين روادهما من اختلافات حاول الانباري مثلا الفصل فيها، ولكن الذي يجب أن يبقى حاضرا في الذهن دائما عند تناول مسائل الخلاف هذه هو أن تلك المسائل كانت تمس أساليب البحث في العربية ومناهج قواعدها ووصفها وتفسيرها بالأساس. اما اللغة في ذاتها أي قواعد بنائها ومادة معاجمها فلم يرتفع فيها الخلاف إلى درجة اللبس أو

(15) عبد العلي الودغيري : نفسه، ص 44.

إلى درجة التناقض الذي يشوش على عملية التواصل أو يجعل تعلم العربية الفصحى باعتماد ما قعده نحاتنا وجمعه لغويونا عامة ــ عملية مستحيلة يحول دونها اختلاف أو تنافر القواعد كما قد توحي بذلك بعض عبارات د. عبد العلي الودغيري في موضوع تحديد المستوى الصوابي. وقد تدارك المؤلف هذا الأمر في أماكن متفرقة من الكتاب عند حديثه عن كيفية ضبط مصادر اللغة زمانيا ومكانيا[16] وعند تفسيره للسبب الذي أبعدت من أجله لغة المولدين مثلا عن مجال الاستشهاد (انظر ص.ص. 150ــ157 وما بعدها). كما اننا احتججنا بما فيه الكفاية أعلاه للرأي القائل بأن الفرق بين لهجات القبائل العربية التي استشهد بها لم يكن يمس سوى بعض القضايا الجزئية التي لا تخلو منها أية لغة حية كانت. اما الاختلاف في القواعد التركيبية والتصريفية والصوتية فنادر لا يعتبر ولا أثر له على نسق العربية الفصحى العام.

هذه بعض القضايا التي مازالت في حاجة إلى البحث والتنقيب والشرح والتوضيح لا شيء نهائي فيها. وهي قضايا أساسية في فهم المنطلقات النظرية للغويينا المتقدمين وفي تبين أساليب دراساتهم، كما أنها قضايا أساسية في معرفة واقع العربية الفصحى أيام جمع ألفاظها ووصف قواعدها.

---

(16) يقول عبد العلي الودغيري : «أما الزمان فقد حددوه (اللغويون) بالفترة الممتدة ما بين أقدم عصر معروف من عصور اللغة في الجاهلية وبين منتصف القرن الثاني الهجري بالنسبة للنصوص الشعرية خاصة، ومنتصف أو نهاية القرن الرابع الهجري بالنسبة للنثر... أما المكان فهو قبائل... قيس وتميم وأسد وطيء وهذيل وكنانة... ص 158ــ159.

الدرس الصوتي الحديث

نتناول تحت هذا العنوان موضوعين أساسيين نعرِّف في أولهما بمفاهيم بحث الأصوات النطقية (La phonétique articulatoire)، ونعرف في الثاني بأهم مفاهيم الصوتيات (الوظيفية) (La phonologie). والبداية بالموضوع الأول ضرورية لأن الأصوات تؤلف الأساس الذي تقوم عليه الصوتيات. (مصطلحا الأصوات (phonétique) والصوتيات (phonologie) من اقتراح تمام حسان).

الأصـــــــوات

□ كيفية إحداث الأصوات الإنسانية

يتم إحداث أصوات اللغات الطبيعية بفضل اجتماع واتحاد عنصرين أساسيين متساويين في الأهمية، لا يمكن لأحدهما الاستغناء عن الآخر عند إحداث هذه الأصوات أو الاشتغال بمفرده، وهما :

أ) أعضاء جهاز النطق التي تتكلف بتشكيل الصوت وإكسابه السمة المميزة له.

ب) تيار الهواء الذي يمر عَبْرَ القناة المصوتة أثناء عملية التنفس فيحدث الأصوات (في الغالب الأعم) عند اندفاعه من الرئتين نحو الخارج أي أثناء عملية الزفير.

أ) أعضاء جهاز النطق :

يتألف جهاز النطق (L'appareil phonatoire) (الآلة المصوتة) (القناة المصوتة) من الأعضاء التالية :

1) **الرئتان** : مصدر الهواء الذي يمكن تحويله إلى أصوات. ومتوسط سعتهما من الهواء عند الفرد البالغ، ما بين 4 و 5 لترات وهما أساسيتان في هذا الجهاز، وان كانتا لا تتدخلان بصفة مباشرة في عملية النطق. فهما اللتان تجمعان الهواء وتدفعان به في

المسلك (القناة) الذي تصطف فيه العضلات التي تستطيع تحويله إلى أصوات متميزة مسموعة عند الحاجة. وهكذا يمكن أن نعتبِر أن الرئتين تكوِّنان مرحلة البداية.

2) **قصبة الرئة** : وهي القناة التي تربط بين الرئتين وأول عضلة مصوتة في جهاز النطق ابتداء من أقصاه. ولا تتدخل قصبة الرئة في عملية النطق ولكنها تكون أول ممر يعبره الهواء المندفع من الرئتين نحو الخارج.

3) **الحنجرة** : وهي أولى عضلات جهاز النطق وتقع في مستوى النتوء الموجود بمقدمة العنق والمسمى تفاحة آدم. والحنجرة عِبارة عن حُجْرة مصوتة متوسط طولها عند البالغ حوالي 5 أو 6 سم. وعرضها حوالي 5 سم. ويمكن أن تكوِّن مرحلة البداية الحقيقية.

4) **الوتران الصوتيان** (**الحبلان الصوتيان**) (Les cordes vocales) : يمتدان افقيا داخل الحنجرة عندما يتوتران. يختلف طولهما باختلاف الجنس والسن إذ يكونان أطول عند الذكر البالغ فيتميز بذلك صوته عن صوتَي الأنثى والطفل.

5) **الحلق** : وهو الحُجْرة الواصلة بين الحنجرة وأقصى الفم ويسمى التجويف الحلقي أو الفراغ الحلقي. متوسط طوله عند البالغ حوالي 15سم.

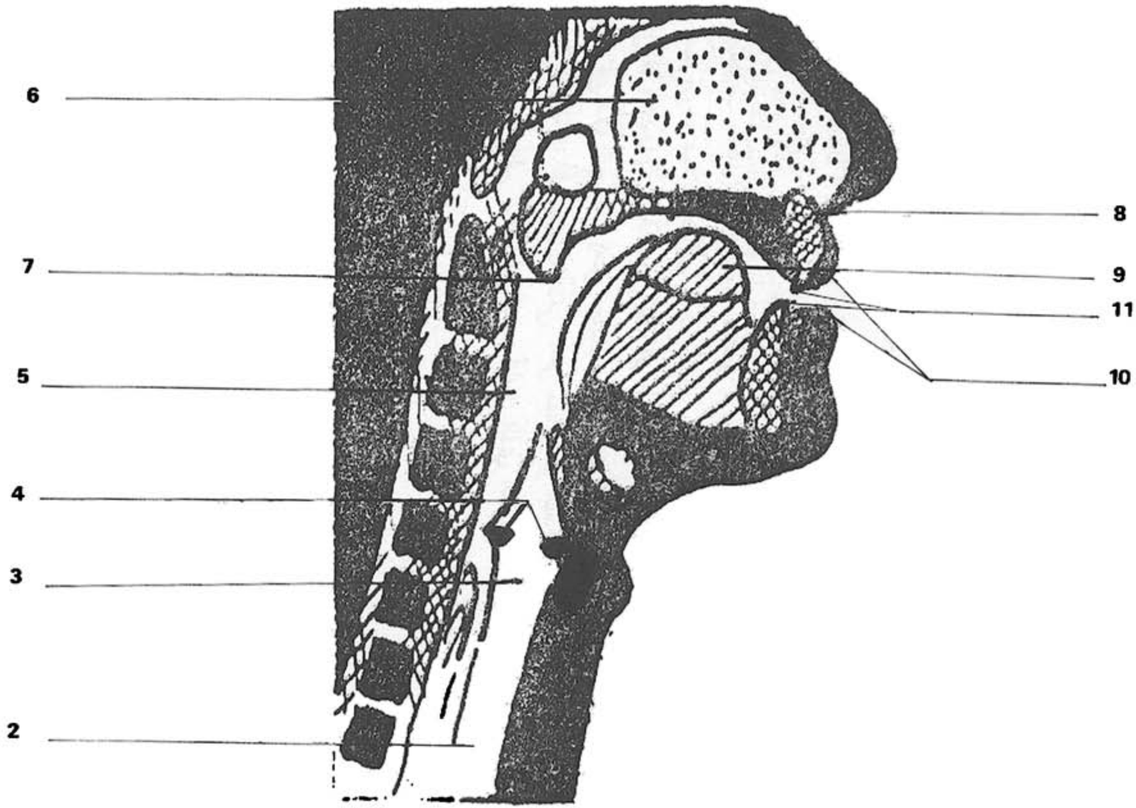
6) **التجويف الانفي** : ويقع خلف غشاء الحنك الذي يمكِّنه، بفضل ليونته ومرونته، من الاتصال بالحلق والفم حسب الحاجة. وهو تجويف ثابت متوسط طوله حوالي 6 سم.

7) **غشاء الحنك** : وهو الجزء اللين من الحنك، ويقع في المنطقة العليا من أقصى الفم وينتهي باللهاة. ويسمى كذلك الحنك اللين أو الرخو.

8) **الحنك** : وهو سقف الفم (الحنك الأعلى) (سقف الحنك) وهو الذي يكوِّن السقف الصلب للفم وهو جامد لا يتحرك ويقسم عادة إلى ثلاثة أقسام وهي :

- أقصى الحنك : وهو المتصل بغشاء الحنك.
- وسط الحنك.
- مقدم الحنك أو اللثة : وهو قسم الحنك المتصل بأصول الثنايا العليا.

9) **اللسان** : وهو عضو كبير المرونة سريع الحركة يوجد داخل تجويف الفم، ويقسم هو الآخر إلى الأجزاء التالية :


6
7
5
4
3
2
8
9
11
10

أ) اقصاه.

ب) وسطه.

ج) مقدمه.

د) طرفه.

هـ) حافته.

و) ذلقه : ويتألف من صدره وطرفه.

10) **الأسنان** : السفلى والعليا.

11) **الشفتان** : السفلى والعليا[1].

بعض هذه الأعضاء التي استعرضناها تكون تجاويف (مثل تجويف الأنف وتجويف الفم وتجويف الحلق) وتقوم بدور صناديق الرنين «فتقوِّي مكونات بعينها وفقا لشكلها وحجمها ودرجة صلابة جدرانها ولعدد وشكل وحجم فتحاتها»[2]. والمعروف ان حجم وشكل هذه التجاويف يختلفان باختلاف الحجم العام للانسان وسنه وجنسه. والثابت الصلب من هذه التجاويف (مثل تجويف الأنف) هو الذي يعطي الصوت الآدمي سمته المميزة المفرقة له عن صوت آدمي آخر مما ييسر التعرف على الأشخاص لمجرّدِ سماع صوتهم، وعلى الخصوص منهم أولئك الذي اعتدنا سماعهم يتكلمون.

ب) تيـــار الهـــواء :

نكتفي هنا بتقديم المقارنة التي عقدتها مارجريت جرين بين حالتي الصمت والكلام وأثرهما على عملية التنفس حتى نتمكن من تبين الفرق بين الحالتين وفهم كيفية اشتغال الجهاز التنفسي إبان عملية التلفظ[3].

---

(1) انظر الرسم التوضيحي أسفله.

(2) تغريد السيد عنبر : دراسات صوتية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، القاهرة، 1980، ص 46.

(3) نقلا عن : تغريد السيد عنبر : دراسات صوتية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، القاهرة، 1980.

التنفـــس عنـــد الصمـــت	التنفـــس عنـــد الكـــلام
ــ يتمُّ لسبب حيوي	ــ يتم لتحقيق العملية الكلامية
ــ لا إرادي	ــ إرادي
ــ كميته حوالي 500سم^3 عند الشهيق	ــ كميته بين 1500، 2000سم^3 عند الكلام وقد ترتفع إلى ما بين 3000، 4250سم^3 عند الغناء.
ــ حركة عضلات التنفس الرئيسية محدودة، ودَوْرُ عضلات التنفس المساعدة سلبي	ــ ازدياد في حركة عضلات التنفس الرئيسية وكذلك دور إيجابي لعضلات التنفس المساعدة
ــ متوسط دورات التنفس من 15 إلى 20 مرة في الدقيقة	ــ يصل عدد دورات التنفس إلى أقل من ذلك
ــ فترة زمنية متساوية لكل من الشهيق والزفير	ــ يتجاوز زمن الزفير زمن الشهيق كثيرا
ــ مرحلتا الدورة التنفسية تتمان عبر الأنف	ــ الشهيق عبر الأنف والزفير عبر الفم
ــ لا تحدث إعاقة للممر التنفسي	ــ يعاق الممر التنفسي في مكان ما في الممر الصوتي وقد يعاق في الحنجرة نفسها
ــ لا تحدث إعاقة لهواء الزفير	ــ يعدل هواء الزفير وفقا لاحتياجات تقسيم الجملة
ــ ضغط هواء الزفير ثابِتٌ	ــ اختلافاتٌ ملحوظة في ضغط الزفير تحت فتحة المزمار وفي داخلها لتنظيم حدة وشدة الصوت الصادر

وهكذا يظهر أن احداث أصوات اللغات الطبيعية يتم بفضل اتحاد عاملين أساسيين متساويين في الأهمية لا يمكن لأحدهما الاستغناء عن الآخر أو الاشتغال بمفرده وهما :

أولا : أعضاء جهاز النطق.

ثانيا : الهواء المندفع من الرئتين نحو الخارج.

فالأصوات الانسانية تتحقق عادة عند عملية الزفير «بأن تعترض الأعضاء الصوتية (أعضاء جهاز النطق) ممر الهواء. وتقتضي عملية الكلام إطالة الزمن الذي تتم فيه عملية الزفير، بالنسبة لعملية الشهيق حتى تصبح الفترة التي يستغرقها الزفير من ثلاثة إلى عشرة أمثال فترة الشهيق، هذا في الكلام العادي، أما عندما يسترسل المتكلم في حديث طويل، فقد يصبح طول فترة الزفير ثلاثين مثلا لطول فترة الشهيق. وكلنا يعرف بالمشاهدة كيف تكون النسبة بينهما، عندما يحاول أحد المقرئين قراءة سورة قصيرة، أو أكثر في نفس واحد»(4). وعملية دفع الهواء من الرئتين نحو الخارج، والتي يتحقق خلالها النطق والتصويت، ليست في حقيقة الأمر مجرد عملية زفير عادية. فالهواء الذي يمر عبر أعضاء جهاز النطق يخرج في شكل دفعات متتالية توافق كل دفعة منه مقطعا صوتيا تاما (انظر تعريف المقطع الصوتي أسفله)، ولتوضيح هذه العملية التي قد يصعب تبيُّنها بالملاحظة المباشرة يمثل لها عبد الرحمن أيوب بالبالونة المنتفخة بالهواء والتي ضبط على فوهتها مزمار يخرج عبره الهواء بحكم ضغط جسم البالونة المطاط إذ يقول «فإذا ما فرض أن جعل الطفل الذي يلعب بها، يضغط على جدارها ضغطات متوالية لخروج الهواء منها على دفعات لا تتوقف بين إحداها والأخرى، لسمعنا للزمارة صوتا شبيها بالصوت المتقطع بالرغم من عدم توقفه. هذه العملية شبيهة كل الشبه بعملية إنتاج المقاطع في أثناء الكلام، لكل مقطع دفعة هوائية تنتج من انقباضات متوالية، يقوم بها الحجاب الحاجز، فيؤثر الضغط على الهواء الخارج من الرئتين دون أن يتوقف خروجه»(5).

وهكذا يمكن نظريا إحداث عدد كبير جدا من الأصوات المختلفة بفضل هواء الزفير وبفضل مرونة أعضاء جهاز النطق، ممر هذا الهواء وقابليتها الكبيرة للتحرك والتغير واتخاذ عدد هائل من الاشكال المتباينة. إلا أن المجتمعات الانسانية تختلف في ما بينها في استخدام وتوظيف هذه الامكانيات التي يتوفر عليها جهاز النطق الموحد عند

(4) عبد الرحمن أيوب : أصوات اللغة، مطبعة الكيلاني، القاهرة، ص 44. د. ت.

(5) عبد الرحمن أيوب : أصوات اللغة، مطبعة الكيلاني، القاهرة ص 44. د. ت.

الجميع. فالبعض يركز على جانب والبعض الآخر يهمله وقد يوظف هذا المجتمع من الامكانات مالا يوظفه المجتمع المجاور وهكذا دواليك مما يؤدي إلى التباين والاختلاف (على المستوى الصوتي) بين اللغات الانسانية وتفرُّد كل منها على حدة بخصائص صوتية مميزة (قارن بين أصوات العربية لغة الضاد والفرنسية أو الأنجليزية مثلا).

ورغم وجود هذه الاختلافات والمميزات الصوتية الخاصة بكل لغة من اللغات الطبيعية، فإن هذه اللغات تتفق في بعض الظواهر العامة التي تخضع لنفس القواعد كالتنغيم وترتيب الأصوات في مقاطع مثلا، وتنظيم الوحدات الصوتية التمييزية في مجموعات وغير ذلك. ومن أهم هذه الظواهر المشتركة إمكانية تقسيم الأصوات الانسانية إلى مجموعتين كبيرتين هما.

- الأصوات الصامتة (الحروف عند القدماء) Les consonnes.
- الأصوات المصوتة (الحركات عند القدماء) Les voyelles.

□ الأصوات الصامتة والأصوات المصوتة

تعريـــــف :

تنقسم أصوات اللغات الطبيعية عموما إلى مجموعتين، كبيرتين ويُبْنَى هذا التقسيم الثنائي على أساس الأوضاع المختلفة التي تتخذها أعضاء جهاز النطق حال التلفظ، أي عند مرور الهواء (المندفع من الرئتين نحو الخارج) بها ابتداء من الحنجرة حتى الشفتين. فأوضاع وحركات تلك الأعضاء هي التي تكيف وتحول هذا الهواء إلى موجات صوتية مسموعة ومتميزة بعضها عن بعض، كما سبق ذكره.

وتتميز الأصوات المصوتة (voyelles) عند صدورها بخلاء ممر الهواء المنتج لها من أي حاجز أو عائق، فيخرج حرا طليقا، إذ تتخذ أعضاء جهاز النطق أوضاعا خاصة بكل صوت فلا تتغير ولا تتحرك أثناء إنتاجه. كما أن ممر الهواء في هذه الحالة لا يضيق ضيقا شديدا من شأنه أن يحدث احتكاكا مسموعا.

والفرق بين زفير التنفس غير المسموع، والمصوتات (بالاضافة إلى ما ذكرناه) هو

توتُّر الحبلين الصوتيين عند إنتاج هذه الأخيرة، مما يجعلها جميعا تتصف بالجهر. فالمصوتات لا تكون إلا مجهورة.

أما الأصوات الصامتة (consonnes) فيحدث أثناء التلفظ بها اعتراض أو يقوم حاجز في مجرى الهواء (ابتداء من الحنجرة حتى الشفتين). والحاجز اما أن يكون في هذه الحالة تاما فينتج عن ذلك انفجار بسبب تخطي الهواء المندفع نحو الخارج له، أو جزئيا فيسمح بمرور الهواء بصورة ينتج معها احتكاك مستمر مسموع.

ويمكن الاستفادة، في فهم الفرق بين هذين النوعين من الأصوات اللغوية، من المثال الذي يورده ابن جني في نفس الموضوع عندما يقول في «سر صناعة الاعراب» : «شبه بعضهم الحلق والفم بالنَّاي، فإن الصوت يخرج فيه مستطيلا أملس ساذجا، كما يجري الصوت في الألف غُفْلاً بغير صنعة، فإذا وضع الزامر أنامله على خروق النَّايِ المنسوقة، وراوح بين أنامله، اختلفت الأصوات، وسمع لكل خرق منها صوت لا يشبه صاحبه، فكذلك إذا قطع الصوت في الفم والحلق باعتماد على جهات مختلفة كان سبب استماعنا هذه الأصوات المختلفة.

ونظير ذلك أيضا وتر العود، فإن الضارب إذا ضربه وهو مرسل سمعت له صوتا، فإن حصر آخر الوتر ببعض أصابع يسراه أدى صوتا آخر، فان أدناها قليلا سمعت غير الاثنين... فالوتر في هذا التمثيل كالحلق، والخفقة بالمضراب عليه كأول الصوت من أقصى الحلق. وجريان الصوت فيه غُفلا غير محصور كجريان الصوت في الألف الساكنة، وما يعترضه من الضغط والحصر بالأصابع كالذي يعرض للصوت في مخارج الحروف من المقاطع، واختلاف الأصوات هناك كاختلافها هنا. وإنما أردنا بهذا التمثيل الاصابة والتقريب»(6).

ويمكن أن نجعل هذا التقسيم الثنائي للأصوات ثلاثيا. بتمييز أصوات اللين (الأصوات اللينة) (حروف اللين) (انصاف الحروف) (انصاف الحركات) عن باقي الأصوات وهي أصوات تقع من حيث أوضاع جهاز النطق حال التلفظ بها بين الصوامت والمصوتات. فممر الهواء المنتج لأصوات اللين يتميز بدرجة انفتاح تقع

(6) سر صناعة الإعراب، ج 1 ص : 9—10، شركة ومطبعة مصطفى البابلي الحلبي وأولاده بمصر، 1954.

وسطا بين درجة انفتاح أقل المصوتات اتساعا وانفراجا، وأكثر الصوامت انفتاحا. وهذا هو السر في تسميتها في الفرنسية بانصاف المصوتات أو انصاف الصوامت.

وقد وصفها العرب باللين لليونة وسهولة النطق بها.

□ وصف أصوات اللغات الطبيعية

عموميـــــات

أ) الصوامت وحروف اللين :

إن ما يميز الأصوات الصامتة واللينة ــ كما تقدم ــ هو قيام حاجز داخل جهاز النطق، واصطدام أو احتكاك الهواء به عند الخروج. هذه الخاصية تمكن من التمييز بين هذه الأصوات وترتيبها في مجموعات اعتمادا على العناصر التالية :

1) **المخارج** : Points d'articulation والمراد بها النقط التي يقوم عندها الحاجز داخل جهاز النطق. يقول ابن جني «اعلم ان الصوت عرض يخرج مع النفس مستطيلا متصلا حتى يعرض له في الحلق والفم والشفتين مقاطع تثنيه عن امتداده واستطالته. فيسمى المقطع أينما عرض له حرفا وتختلف أجراس الحروف بحسب اختلاف مقاطعها، وإذا تفطنت لذلك وجدته على ما ذكرته لك. الا ترى أنك تبتدئ الصوت من أقصى حلقك، ثم تبلغ به أي المقاطع شئت فتجد له جرساً ما، فإن انتقلت عنه راجعا منه أو متجاوزا له ثم قطعت أحسست عند ذلك صدى غير الصدى الأول، وذلك نحو الكاف فإنك إذا قطعت بها سمعت هنا صدى ما فإن رجعت إلى القاف سمعت غيره، وان جزت إلى الجيم سمعت غير دينك الأولين : «سر صناعة الاعراب ج 1 ص 6». وتقع النقط التي يمكن أن يقوم عندها الحاجز بين أدنى حافتي الشفتين وأقصى منطقة في الحنجرة.

2) **درجات الانفتاح** (Degrés d'aperture) : وهي أهمية الحاجز ونوعيته.

3) **صفات النطق** (Modes d'articulation) : وهي الصفات المصاحبة لقيام الحاجز والتغيرات التي تطرأ على القناة المصوتة عند النطق بالأصوات.

ــ **المخارج** : يمكن حصر مخارج الأصوات عموما في النقط التالية :

ـــ المخرج الشفوي : ويقع في مستوى الشفتين ويتم بانضمام أو تقارب الشفتين السفلى والعليا مثلا ب.و w.b[7].

ـــ المخرج الشفوي الاسناني : ويقع بين الشفة السفلى والثنايا العليا بالتقائهما أو تقاربهما مثلا : ف، ف v.f.

ـــ المخرج بين الاسناني : ويتم بوضع طرف اللسان بين الأسنان السفلى والعليا. مثلاً : ث، ذ ṯ d

ـــ المخرج الاسناني : ويتم بوضع طرف اللسان على الأسنان : مثلا ت، د t.d.

ـــ المخرج اللثوي : ويتم باتصال طرف اللسان بأصول الثنايا العليا.

ـــ المخرج الأدنى حنكي : ويتمُّ باتصال مقدمة اللسان بأدنى الحنك.

ـــ المخرج الوسط حنكي : ويتم باتصال وسط اللسان بوسط الحنك.

ـــ المخرج الأقصى حنكي : ويتم باتصال سطح اللسان بأقصى الحنك.

ـــ المخرج اللهوي : ويتم باتصال مؤخرة اللسان بالجزء الرّخو من مؤخرة الحنك (غشاء الحنك) وباللهاة، مثلا : غ. ġ

ـــ المخرج الحلقي : ويتم بتقلص فجوة الحلق.

ـــ المخرج الحنجري : ويتم بتقلص فجوة الحنجرة : مثلا : هـ. h.

ـــ **درجات الانفتاح** : المراد بها مختلف درجات الاتساع والضيق التي تكون عليها القناة المصوتة في مستوى المخرج عند إنتاج الأصوات. ونفرِّق فيها عادة بين :

ـــ **الانغلاق التام المؤقت** : ويكون فيه جهاز النطق منغلقا تماما عند مستوى المخرج. ويتصف الحرف في هذه الحالة بالشِّدَّة أو الانفجار، ويمرُّ النطق بالأصوات الشديدة عَبْرَ ثلاث مراحل يحددها فاندريس في قوله : «ففي كل صامت انفجاري (شديد) ثلاث خطوات متميزة : الاغلاق أو الحبس، والامساك الذي قد يكون طويل

(7) يوجد نظامان مشهوران للرموز الصوتية أحدهما من وضع علماء الساميات والآخر من وضع علماء الصوتيات العامة يُرمَز إليه ب A.P.I. نفضل هنا استعمال النظام الأول لارتباطه بالدراسات العربية ونلحق جدول الثاني بنص هذه المحاضرة تعميما للفائدة.

المدى أو قصيره والفتح أو الانفجار» (اللغة ص 48)، وكلما طال الامساك كلما كان الصوت قويا وواضحا كما يظهر هذا عند النطق بالصوامت الشديدة المضعفة مثلا : الدال في مدَّ يمدُّ.

* الانفتاح الضعيف الذي يسمح للهواء بالمرور مع الاحتكاك بمكان أو نقطة المخرج. ويتصف الصوت في هذه الحالة بالرخاوة أو الاحتكاك.

* هناك منزلة بين الانغلاق التام والانفتاح الضعيف يتميز الصامت فيها بالصفتين معاً إذ يبدأ شديدا وينتهي رخوا. مثل صوت الجيم في العَربية الفصحى أو ch في الانجليزية ــ ويسمى هذا النوع من الصوامت بالشديد الرخو (affriquée) يقول فندريس «وتوجد سلسلة من الأصوات المتوسطة بين الانفجارية والاحتكاكية، وهي ما تسمى شبه الانفجارية، أو بعبارة أوضح : الانفجارية الاحتكاكية وتتميز بالاغلاق الذي لا يستمر إحكامه فيها، كما في الانفجارية حبس، ولكن هذا الحبس تتبعه حركة خفيفة من الفتح، بحال يجعل الانفجاري ينتهي بالاحتكاكي فالانفجاري الاحتكاكي هو انفجار فاشل».

إضافة إلى ما تقدم عن درجات الانفتاح عند مرور الهواء بجهاز النطق هناك حالات يمر فيها بعض الهواء دون احتكاك أو انحباس :

ــ إما بتجنب نقطة الانغلاق كما في حرف اللام مثلا.

ــ وإما لأن هذا الانغلاق غير مستقر بل متقطع كما في حرف الراء المكرر مثلا.

ويسمى هذان النوعان من الصوامت بالصوامت المائعة أو السائلة أو المنحرفة.

ــ وإما لأن الهواء يمر عبر الأنف والفم كما في الأصوات التي توصف بأنها أنفية (nasales)' مثلا : ن، م، m. n

ــ **الصفات** : * **الأصوات المجهورة** (Sonores) يتوتر الحبلان الصوتيان أحيانا فيقترب أحدهما من الآخر دون أن يتصلا، وعند مرور الهواء المندفع من الداخل نحو الخارج يهتزان فتحدث عن اهتزازهما ذبذبات ترافق نطق بعض الأصوات وتوصف كل الأصوات التي يتدخّل في إنتاجها الحبلان الصوتيان بالجهر. وللتأكد من صفة الجهر في الحرف يمكن اعتماد التجريب الذي نبه إليه العالم اللغوي فاندريس حين قال :

«وإذا راعى الانسان ان يسد أذنيه عند النطق فإنه عندما يصل إلى المجهورة يسمع الرنين الذي تنشره الذبذبات الحنجرية في تجاويف الرأس» «اللغة».

ــ **الأصوات المهموسة** : (sourdes) : وأما الأصوات المهموسة فهي التي يكون الحبلان الصوتيان، عند النطق بها، في حالة استرخاء تام وتوصف هذه الأصوات بالهمس لانعدام الذبذبات الناتجة عن اهتزاز الحبلين الصوتيين فيها.

نعتمد التقابل : جهر/همس في الفونلوجيا للتفريق بين عدد من الأصوات المتقاربة المتشابهة في المّخرج وباقي الصفات الأخرى.

* **صفات الإطبَاق والاستعلاء والانفتاح.**

الإطباق من حيث النطق هو تحرك بعض أعضاء جهاز النطق نحو الحلق وارتفاع مؤخرة اللسان، مّما يؤدي إلى اتساع الحجرة الرنانة داخل الفم، وهي صفة ترافق نطق بعض الأصوات القليلة، والانفتاح عكس الإطباق ؛ أي انعدام ظهور هذا الاتساع الذي يلون الأصوات المطبقة بلون خاص، اما الاستعلاء، فهي صفة بين بين تكون عندها الحجرة الرنانة أقل اتساعا منها في حالة الإطباق.

ويمكن أن يكون لهذه الصفات الثلاث دور رئيسي في التمييز بين الأصوات في بعض اللغات.

* **المـــــدة :**

المراد بهذه الصفة الزمن الذي يستغرقه نطق الحرف وهو زمن قد يطول وقد يقصر بحسب الأصوات. ونميز عادة بين نوعين من المدة : الطول والقصر.

والصوت الطويل هو الذي تساوي مدة إنتاجه صوتين قصيرين على الأقل، وهي صفة نعتمدها في التفريق بين المصوتات في العربية كما سنرى فيما بعد.

ب) المصوتـــات :

سبق أن تحدثنا عن كيفية إنتاج المصوتات وقلنا إنها أصوات مجهورة يخرج الهواء عند التلفظ بها على شكل مستمر دون أن تعترضه أعضاء النطق أو يضيق ممره ضيقا من شأنه أن يحدث احتكاكا مسموعا، ويمكن ــ بالاضافة إلى صفة الجهر ــ أن

تكون في بعض المصوتات غُنَّة عندما يمر بعض الهواء المنتج لها عبر الخياشيم والأنف. ونحصر حديثنا هنا في المصوتات العربية ليسهل الفهم وإجراء التجارب. أما أهم مصوتات اللغات الإنسانية عامة فموصوفة في الجدول الملحق بهذه المحاضرة.

ونبدأ أولا بتحديد خصائص المصوتات الأُصول الفصحى اعتمادا على الدراسات الحديثة وعلى الخصوص منها دراسة كانتينو(8)، قبل التعرض لوصف النحاة المتقدمين لهذه المصوتات.

تعرف العربية الفصحى ستة مصوتات أصول تتحدد في إطار ثلاث خاصيات هي : أوضاع جهاز النطق ودرجات الانفتاح وصفات النطق.

1) أوضاع جهاز النطق :

عند إنتاج صوت الفتحة [ǎ] :

يجتمع اللسان في وسط الفم وتنفرج الشفتان دون أن تقتربا.

عند إنتاج صوت الكسرة [ǐ] :

يجمع اللسان في مقدم الفم وتنفرج الشفتان وتقتربان.

عند إنتاج صوت الضمة [ǔ] :

يجتمع اللسان في مؤخر الفم وتستدير الشفتان وتضمان.

2) درجات الانفتاح :

يختلف مدى انفتاح جهاز النطق في المصوتات العربية، فهو في الكسرة والضمة منغلق وفي الفتحة منفتح.

3) صفات النطق :

يوجد بالعربية نوعان من المصوتات الأُولى طويلة والثانية قصيرة. والطويلة هي التي يمتد فيها النفس امتدادا يصير معه مدى الصوت مساويا لمدى النطق بمصوتين قصيرين

---

(8) J. Cantineau : Etudes de linguistique arabe, Mémorial, Klincksieck, Paris, 1960.

تقريبا. وعدد المصوتات الطويلة في العربية يساوي عدد القصيرة فالفتحة إما أن تكون قصيرة أو طويلة وكذلك الكسرة والضمة.

	المصوتات القصيرة	المصوتات الطويلة
الفتحة	ă	ā
الكسرة	ĭ	ī
الضمة	ŭ	ū

ولا يمر أي قسط من الهواء المنتج للمصوتات في العربية من الأنف ولذلك فهي لا تتصف بالأنفية كما هو الحال بالنسبة لبعض المصوتات في الفرنسية مثلا.

ننتقل الآن للنظر في موقف النحاة المتقدمين من هذه الأصوات المصوتة.

لقد اهتم نحاة العربية المتقدمين بالأصوات الصامتة واللينة اهتماما بالغا كما يتضح مما قدمناه سالفا، والسر في ذلك هو ان هذين النوعين من الأصوات يكونان المادة التي تتألف منها أصول الكلمات في العربية. ولكنهم اهملوا الأصوات المصوتة القصيرة والطويلة (أو الحركات وحروف المد كما كانوا يسمونها).

فلم يهتموا كثيرا بتحديد صفاتها وخصائصها المميزة لها ولكننا مع ذلك لانعدم ان نعثر — كما يقول كمال محمد بشر — على أقوال متناثرة هنا وهناك تشير إلى شيء من خواص الحركات وصفاتها. فالحركات إنما سميت كذلك — على رأيهم — لأنها تحرك الحرف (الصامت) وتقلقله، أو كما قال بعضهم، لأنها تجذبه نحو «الحروف» التي هي أجزاؤها، فالفتحة تجذبه نحو الألف والكسرة نحو الياء والضمة نحو الواو. ولكن هذا التفسير — كما نرى أقرب إلى أن يكون تعليلا لتسميتها بالحركات من كونه بيانا وتوضيحا لخواصها. على أن التفسير الثاني، وهو كون الحركات القصيرة (وهي الفتحة والكسرة والضمة وهي المعنية بالمصطلح «حركات» عند علماء العربية) تجذب الحرف نحو الألف والياء والواو الممدودة، هذا التفسير فيه ما يشعر بإدراك من نوع ما لخواص هذه الحركات وذلك بسبب ربطها بحروف المد وعدها أجزاء منها»(9). ولهذا

---

(9) كمال محمد بشر : علم اللغة العام، الأصوات، دار المعارف بمصر، د.ت.

فإن ما قاله النحاة المتقدمون عن حروف المد أي المصوتات الطويلة، يمكن اعتماده لتحديد خصائص المصوتات القصيرة كذلك لأنها بعضٌ منها أي من الطويلة. يقول ابن جني في «سر صناعة الاعراب» ص 19 ــ 20 : «اعلم أن الحركات أبعاض حروف المد واللين وهي الألف والياء والواو، فكما أن هذه الحروف ثلاثة فكذلك الحركات ثلاث وهي : الفتحة والكسرة والضمة. فالفتحة بعض الألف والكسرة بعض الياء والضمة بعض الواو.... ويدلُّك على أن الحركات أبعاض لهذه الحروف أنك متى أشبعْت واحدة منهن حدث بعدها الحرف الذي هي بعضه وذلك نحو فتحة عين عمر فإنك ان أشبعتها حدثت بعدها ألف، فقلت عامر وكذلك كسرة عين عنب، إن أشبعتها نشأت بعدها ياء ساكنة وذلك قولك عينب، وكذلك ضمة عين عمر لو اشبعتها لانشأت بعدها واو ساكنة وذلك قولك عومر، فلولا ان الحركات أبعاض لهذه الحروف وأوائل لها، لما نشأت عنها ولا كانت تابعة لها».

فماذا قال متقدمو النحويين عن المصوتات الطويلة ؟ يورد كمال محمد بشر (في كتابه علم اللغة : الأصوات) نصا للخليل بن أحمد يقول فيه «الألف اللينة والواو والياء هوائية أي أنها عن الهواء».

ويقول ابن جني في سر صناعة الاعراب، عند حديثه عن ذوق أصوات الحروف «فإن اتسع مخرج الحرف حتى لا يقتطع الصوت عن امتداده واستطالته استمر الصوت ممتدا حتى ينفذ فيفضي حسيرا إلى مخرج الهمزة فينقطع بالضرورة عندها، إذ لم يجد منقطعا فيما فوقها. والحروف التي اتسعت مخارجها ثلاثة : الألف ثم الياء ثم الواو. وأوسعها وألينها الألف، إلا أن الصوت الذي يجري في الألف مخالف للصوت الذي يجري في الياء والواو، والصوت الذي يجري في الياء مخالف للصوت الذي يجري في الألف والواو. والعلة في ذلك أنك تجد الفم والحلق في ثلاث الأحوال مختلف الأشكال.

أما الألف فتجد الحلق والفم معها منفتحين غير معترضين على الصوت بضغط أو حَصر.

وأما الياء فتجد معها الأضراس سفلا وعلوا قد اكتنفت جنبتي اللسان وضغطته وتَفَاجَّ الحنك عن ظهر اللسان فجرى الصوت متصعدا هناك، فلأُجل تلك الفجوة ما استطال

وأما الواو فتضم لها معظم الشفتين وتدع بينهما بعض الانفراج ليخرج فيه النفس ويتصل الصوت.

فلما اختلفت أشكال الحلق والفم والشفتين مع هذه الأحرف الثلاثة اختلف الصدى المنبعث من الصدر..» ص 8ـ9 وفي محاولة لتحديد مخارج المصوتات القصيرة يقول ابن جني في نفس الكتاب ص 60 : «ان الفتحة أول الحركات وادخلها في الفم والكسرة بعدها والضمة بعد الكسرة»(10).

□ درجات انْفِتاح وصفات الأصوات عند نحاة العربية المتقدمين

نقدم هنا تعريف أهم صفات ودرجات انفتاح الأصوات عند نحاة العربية المتقدمين. والهدف من هذا التقديم المختصر المركز ـ الذي نقدمه بالمصطلح العربي الأصيل ـ هو إعطاء القارئ نموذجا لأساليب لغويي العربية في تعريف الأصوات من وجهة النظر النطقية.

1) **الشدة** : معنى الشديد أنه الحرف الذي يمنع النفس أن يجري فيه.

2) **الرخاوة** : الرخو هو الذي يجري فيه الصوت من غير ترديد لتجافي اللسان عن موضع الحرف.

3) **بين الشدة والرخاوة** : وهو الذي لا يجري الصوت في موضعه عند الوقف، ولكن تعرض له اعراض توجب خروج الصوت باتصاله بغير مواضعه.

4) **التكرار** : «انك إذا وقفت عليها رأيت طرف اللسان يتعثر فيها».

5) **الانحراف** : صامت قد يمتد الصوت فيه لأيّ ناحيتي مستدق اللسان فيَتجَافيان فيخرج الصوت منهما.

6) **الغنّة** : وهو صوت في الخياشيم.

7) **اللين** : «حرفان اتسع مخرجهما لهواء الصوت أشد من اتساع غيرهما وهما و، ي.

---

(10) سر صناعة الإعراب ج 1، نشر شركة ومطبعة مصطفى البابلي الحلبي وأولاده، مصر، 1954.

8) **الهوى** : حرف اتسع لهواء الصوت مخرجه أشد من اتساع مخرج الياء والواو وهو الألف.

9) **الجهر** : «حرف اشبع الاعتماد عليه في موضعه فمنع النفس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد».

10) **الهمس** : حرف أضعف الاعتماد عليه في موضعه حتى جرى معه النفس.

11) **الإطباق** : «ان ترفع ظهر لسانك إلى الحنك الأعلى مطبقا له».

12) **الانفتاح** : ضد الإطباق.

13) **الاستعلاء** : ان يتصعد اللسان إلى الحنك الأعلى انطبق اللسان أو لم ينطبق.

14) **الانخفاض** : هو ضد الاستعلاء.

15) **القلقلة** : لا تضغط عن مواضعها وتحفز في الوقف.

16) **الهت** : توصف به الهاء لما فيها من الضعف والخفاء فهي مهتوتة.

17) **الذلاقة** : سميت بعض الحروف ذلقية لأنها يعتمد عليها بذلق اللسان وهو صدره وطرفه.

الصوتيات

الصوتيـــــات

لا نتعرض ـــ من مواضيع هذا الباب ـــ إلا إلى تعريف الفونيم وتلخيص ما يتميز به عامة، وذكر تقنية الكشف عنه. وسيتم تقديم النظام الصوتي (الفونلوجي) العربي في البحث الموالي.

□ الفونيم تعريف وتحديد

يقول أوندري مارتيني : «يمكن تحليل كل نص، في أي لغة صيغ، تحليلا تاما إلى مجموعة متتالية من الوحدات التمييزية. هذه الوحدات التي تتصف بالاستقلال، عددها محدود في كل لغة»(11). ويمكن وصف هذه الوحدات بتحديد العناصر المميزة لها كل على حدة في إطار اللغة المعينة. وتسمى هذه الوحدات التمييزية في الفرنسية (phonème) وقد اقترحنا سابقا كترجمة لها في العربية لفظة «حرف»(*) التي كانت تطلق عند متقدمي النحويين على الصوت الصامت والصوت اللين والصوت المصوت. يقول ابن جني في «سر صناعة الاعراب» ص 19ـــ20» : «وقد كان متقدمو النحويين يسمون الفتحة الألف الصغيرة والكسرة الياء الصغيرة والضمة الواو الصغيرة. وقد كانوا في ذلك على طريق مستقيمة...»

ويضيف بعد ذلك : «فإذا جاز ذلك فليست تسمية الحركات (المصوتات القصيرة) حروفا صغارا بأبعد في القياس». ولكننا تراجعنا عن مقترحنا هذا خوفا من أن يخلط الطلبة بين «حرف» (phonème) و«حرف» (Lettre) وفضلنا استعمال «فونيم».

وإذا كانت الفونتيكا تبحث في الأصوات اللغوية مستقلة فإن الفونلوجيا (او علم الصوتيات كما يسميه تمام حسان) يبحث في وظائف هذه الأصوات داخل نظام اللغة. إذ يميز ـــ في الأصوات بين الظاهرة الاكوستيكية أو النطقية مثلا وبين الوظيفة

(11) A. Martinet : Eléments de linguistique générale, Armand Colin, Paris, 1980, p : 160

(*) يظهر هذا المصطلح في الدراستين التاليتين.

اللغوية، ولا يبحث الا في هذه الأخيرة، فلا يصف الا الأصوات الأصول التي لها قيمة تمييزية أي الفونيمات (Les phonèmes).

ولكي يرتفع الصوت اللغوي إلى درجة فونيم يجب أن يتوفر له شرطان أساسيان هما :

1) أن يشارك في تمييز النصوص التي يرد فيها عن باقي النصوص الأخرى.
2) أن يكون أصغر اختلاف صوتي يمكن تحديده وعزله داخل اللغة المعينة.

مثال ذلك الصوت الأول في الكلمات التالية : قام/نام/دام/عام. وتعريف الفونيم في «معجم اللسانيات» لديبوا وآخرين ينحصر في المسائل التالية هو أصغر وحدة غير معبرة عن معنى، يمكن تحديدها داخل السلسلة الكلامية ولكل لغة مجموعة محدودة من الفونيمات (ما بين 20 و50 حرفا حسب اللغات) تركب وترتب في السلسلة الكلامية لتأليف دوال الارساليات وتتقابل بدقة وانتظام في مختلف نقط السلسلة الكلامية لتميز الارساليات بعضها عن بعض. هذه هي وظيفة الفونيم الأساسية. وهكذا فإن الفونيمات تعرَّف كوحدات تمييزية صغرى...

ان الخاصية الصوتية للفونيم حادثة ولكنها مع ذلك مهمة لأن كل اللغات المعروفة شفوية. وهكذا فإن الفونيم يعرف بالرجوع إلى مادته المصوتة بفضل بعض الخصائص التي تتحقق في مختلف مستويات نقل الارسالية...

هاته الخاصيات الصوتية المسماة «بالصفات التمييزية» أو «الموجبة» (pertinents) لا تكون أبدا مستقلة في نقطة ما من نقط السلسلة الكلامية ؛ انها تندمج بصفات صوتية أخرى يمكن أن تتغير بحكم السياق وظروف الارسال وشخصية المتكلم... وهي التي نسميها بالصفات غير التمييزية. إن متكلم لغة ما قد تعلم إنتاج مجموعة من حركات جهاز النطق بحيث يضع في الموجات الصوتية مجموعة من الصفات تعلَّمَ المستمعُ مستعمل نفس اللغة معرفتها، نفس الحرف إذن يحقق فعلا بأصوات مختلفة تكون فصيلة غير محدودة ولكنها تملك الصفات التي تجعل هذا الفونيم في تقابل مع باقي فونيمات نفس اللغة. هذه الأصوات التي تمثل فونيما واحدا هي التي تسمى المتغيرات. مثلا الراء : مكرر، غير مكرر، مفخم، غير مفخم، الخ. وهكذا فقد تختلفُ بعض الأصوات من حيث المخرج أو بعض الصفات، ومع ذلك

فان مستعملي اللغة الواحدة ينظرون إليها من ناحية الوظيفية كما لو كانت صوتا واحدا وذلك مثل اللام في العربية التي تكون أحيانا صوتا مفخما في مثل «والله» وأحيانا أخرى مرققا في مثل «بالله» أو الجيم في الدارجة العربية المغربية التي تنطق في بعض السياقات [ž] وفي البعض الآخر [g] : (جمع) /žmeƐ/ كلس /gles/ هذه الأصوات المختلفة التي لا تستخدم في اللغة للتفريق بين المعاني المختلفة وإنما يؤدي إلى ظهورها السياق أو اختلاف المناطق أو الناطقين والتي تعتبر عند متكلمي اللغة الواحدة شيئا واحدا هي التي تكون الفونيم.

وتصور الفونيم بالمعنى الذي قدمناه ــ كما يقول رمضان عبد التواب ــ تصور حديث جدا في علم اللغة وفي علم الأصوات اللغوية، وكان الذي دعا العلماء المحدثين للقول به انهم لاحظوا أن أصوات أي لغة من اللغات لا حَدَّ لها في واقع الأمر، وأن ما نسميه صوتا واحدا قَدْ يتردد هو نفسه في كلمة من الكلمات أكثر من مرة، ولكنه لا ينطق بنفس الصورة في كل مرة...»[12] ولكننا نُعَرِّف ونحدد الفونيمات ونميز بينها وكأنها تنطق كل واحدة منها على حدة كما يقول كمال محمد بشر أي أننا لا ندخل في الاعتبار السياق الذي ترد فيه والذي لا تتحقق خارجه في الواقع لأن المتكلم لا ينطق الحروف مستقلة وإنما ينطقها متصلة مرتبطة داخل الكلمات والجمل. ومعنى هذا أن الفونيم الواحد تتعدد أشكال تحققه بتعدد السياقات التي يرد فيها كما تقدم فالباء مثلا يصير عدة باءات تتفق في أشياء وتختلفُ في أخرى.

وهكذا يكون وصفنا للفونيمات في الفونلوجيا عاما ومجردا إلى حد ما، قصد التيسير ومحاولة التقعيد، ولا نتحدث هنا عن السياقات ولا نذكر الخواص التفصيلية التي تتميز بها هذه الفونيمات بسبب تنوع مواقعها واختلاف وتنوع المحيط التي ترد فيه. ويمكن الرجوع في هذا الموضوع لكتب النحو والصرف والقراءات حيث توجد أحسن الدراسات السياقية للفونيمات العربية.

وينحصر موضوع الفونلوجيا هنا في وضع لائحة فونيمات اللغة المدروسة وتحديد العناصر المميزة لكل فونيم منها على حدة وترتيبها حسب هذه العناصر واستخلاص القواعد التي تنظم تركيبها وترتيبها في الكلمات والجمل.. فالبحث في الفونيمات هو

---

(12) رمضان عبد التواب : المدخل إلى علم اللغة، ص 86، مكتبة الخانجي بالقاهرة، 1980.

بحث في اللغة لا الكلام. وأول عمل يجب القيام به في هذا الباب هو تفكيك الكلمات إلى أصغر وحداتها المكونة لها أي الأصوات والبحث فيها عما له قيمة تمييزية أي الفونيمات وعما ليس له تلك القيمة أي متغيرات الفونيمات. ويتمُّ هذا التمييز باعتماد أسلوبي التقطيع (الذي يمكن من التفكيك) والتبادل (الذي يساعد على تبين الفونيمات وتحديدها ووصفها) للكشف عن النظام الصوتي للغة المدروسة. ويتم هذا الكشف «بواسطة استعمال القيم الخلافية التي تتمايز بها وظائف الأصوات في الكلمات. وينبغي هنا ـــ يقول تمام حسان ـــ أن نذكر أن هذه أوُل خطوة نرفع بها الأصوات المنطوقة إلى مستوى التجريد اللغوي...»[13] ذلك بأن القيم الخلافية والوظائف والكلمات كلها أجزاء من اللغة لا من الكلام وهي الآن وهنا أداة للتجريد اللغوي أي لتقسيم الأصوات إلى فونيمات. ويتم هذا التقسيم بواسطة اختبار بسيط يجري على الأصوات في الألفاظ التي تتحقق بها الكلمات ليظهر سلوكها من حيث التداخل والتخارج في الموقع المعيَّن من الكلمة».

والتداخل معناه امكانية جعل أحد الصوتين محل الآخر في نفس السياق فيؤدي ذلك التبديل إلى تغيير في معنى الكلمة مثلا : بال/مال/جال/طال/قال/عال...

والتخارج هو أن ترفض اللغة أن يحل أحد الصوتين محل الآخر في نَفس السياق مثلا : اللام في و«الله» مفخمة وفي «بالله» مرققة ولا يمكن استبدال لام الكلمة الأولى بلام الثانية لأن اللام لا تكون في السياق الأول إلا مفخمة وفي الثاني إلا مرققة. هما اذن صوتان لفونيم واحد في العربية هو اللام.

بعد الكشف عن فونيمات اللغة المعينة وتحديد عددها ننتقل إلى وصفها وتعريفها والتمييز بينها واستخلاص نظامها الخاص باعتماد المسائل التالية :

أ) بالنسبة للفونيمات الصامتة والفونيمات اللينة :

1) المخارج.
2) درجات الانفتاح.
3) الصفات.

(13) تمام حسان : اللغة العربية معناها ومَبناها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1973.

ب) بالنسبة للفونيمات المصوتة :

1) أوضاع أعضاء جهاز النطق حال التصويت.

2) درجات الانفتاح.

3) الصفات.

هامـــش :

لابد من الإشارة في ختام هذا التقديم إلى أمر أساسي للتنبيه إلى ضرورة تجنب اعتماد الحروف العادية في الدرس الصوتي وتعويضها بالرموز الاصطلاحية.

إذا كان د. تمام حسان قد توفق في التمييز بين الأصوات والفونيمات.

في كتابه «اللغة العربية معناها ومبناها» كما توفق في تحديد الطريقة التي يسلكها الباحث لاستخلاص النظام الصوتي للغة المعينة مما جعلنا نعتمده في توضيح هذه الطريقة، فإنه قد أخطأ عند التطبيق على أمثلة من العربية. لهذا رأينا من الضروري التنبيه إلى أخطائه حتى لا يقع الطالب الذي سيرجع إلى كتابه في الخلط. يقول تمام حسان : «وسنرى فيمايلي تطبيقا لاستخدام هذه الطريقة في الكشف عن النظام الصوتي للغة. خذ مثلا لفظ «طاب» أي صار طيبا وهو يشتمل على ثلاثة أصوات أولها صحيح وثانيها معتل وثالثها صحيح (والصحيح عنده هو الصامت والمعتل هو المصوت طويلا كان أو قصيرا)... فإذا استبدلنا بصوت (ا) الذي في الوسط صوت (ل) صار اللفظ «طلب» وتغير المعنى أيضا. ص 75.

1) وخطؤه الأول هو القول بأن طاب تتألف من ثلاثة أصوات فهذا لا يتحقق إلا في حال الوقف اما في حال الوصل فإن هذه اللفظة تتألف من أربعة أصوات كما يتضح من الكتابة الصوتية :

ṭ ā b ă
1 2 3 4

2) لفظة طلب لا يمكن أن تدخل في تقابل مع طاب لأن الأولى تتألف من ستة أصوات في حين لا تتألف الثانية الا من أربعة فقط.

ṭ ă l ă b ă / ṭ ā b ă

3) لا يقع اللام في «طلب» في نفس الرتبة التي يقع فيها الألف من «طاب» :

ṯ ǎ l ǎ b ǎ
1 2 3 4 5 6

ṯ ā b ǎ
1 2 3 4

واما الخطأ الثاني فهو القول بإمكانية استبدال (ا) ب (ل) إذ لا وجود لصوت يرمز إليه بالألف في هذا السياق. فالألف ليس رمزا مستقلا لصوت مستقل وإنما هو علامة على أن الفتحة التي تسبقه طويلة :

فتحة + ا = a، وان كانت كتابة الكلمتين بالخط العربي قد توقع غير المتمرس بمسائل الفونلوجيا في الخطإ.

فلا إمكانية هنا لتطبيق الاستبدال لأن الكلمتين «طاب» و«طلب» مختلفتان من حيث عدد الأصوات المؤلفة لهما ومن حيث توزيع وترتيب هذه الأصوات.

بعد وصف وتحديد عدد فونيمات اللغة المدروسة واستخلاص نظامها الفونولوجي بذكر الصفات المميزة لكل فونيم على حدة، ننتقل عادة إلى استخراج قواعد تركيب واشتغال هذه الفونيمات ببحث المواضيع التالية[14].

1) تآلف وتنافر الفونيمات، وتأثير بعضها في بعض وما ينتج عن ذلك في النطق.

2) نسبة المردودية الوظيفية لكل فونيم.

3) قواعد النبر (L'accent).

4) البنية المقطعية.

---

(14) انظر في موضوع (4) البنية المقطعية العربية أسفله، وفي موضوع (1) و(2) و(3)
A. Hilili : Contribution à l'étude fonctionnelle de l'arabe, Thèse d'Etat. Paris III, 1987, 1e partie. توجد نسخة منها بخزانة كلية الآداب بفاس.

النظام العالمي للرموز الصوتية(*)

	المخارج / الصفات	بين شفوية	شفوية أسنانية	أسنانية ولثوية	لثوية	مقدم حنكية	وسط حنكية	أقصى حنكية	من الغشاء	فويق الغشاء	حلقية	حنجرية
		الشفوية		الاسنانية		الحنكية			من غشاء الحنك فما تحت			
	الجهر	− +	− +	− + − +	− +	− +	− +	− +	− +	− +	− +	− +
الصوامت	شديد	p b		t d	ʈ ɖ			c ɟ	k g	q ɢ		ʔ
	رخو	Φ β	f v	θ ð s z	ʂ ʐ	ʃ ʒ	ɕ ʑ	ç ʝ	x ɣ	χ ʁ	ħ ʕ	h ɦ
	أنفي	m	ɱ	n	ɳ			ɲ	ŋ	N		
	منحرف			l	ɭ			ʎ	ɫ			
	منحرف احتكاكي			ɬ ɮ								
	مكرر			r						R		
				ɾ	ɽ					R		
	مكرر احتكاكي			ɼ								
	مستمر غير احتكاكي ولين	w ɥ	ʋ					j (ɥ)	(w)			
الصوائت								حنكية — مركزية — غشاء				
	مضموم	(y ʉ u)						i y ɨ ʉ ɯ u				
	نصف مضموم	(ø o)						e ø ɤ o				
								ə				
	نصف منفتح	(œ ɔ)						ɛ œ ʌ ɔ				
								æ ɐ				
	منفتح	(ɒ)						a ɑ ɒ				
		توجد التحقيقات الثانوية بين قوسين										

(*) J. Dubois et autres : Dictionnaire de linguistique, p. 24. librairie Larousse, 1973.

□ النظام الصوتي الفصيح والنظام الصوتي الدارج

• تنتظم هذه الدراسة والدراسة التي تليها في إطار المدرسة البنيوية الوظيفية.

• نتّخذ لهجة مدينة فاس القديمة نموذجا للنظام العربي الدارج.

1) الفاسية القديمة : تعريف وتحديد

1.1. تعتبر الفاسية القديمة من أكثر اللهجات حفاظا على معالم البنية الأصلية للعربيات الحضرية، نظرا لقدم مديمة فاس ونظرا كذلك للظروف التاريخية — المجتمعية المستقرة نسبيا التي نمت وتطورت في أحضانها هذه اللهجة(1).

1.2. تحديد وحصر الفاسية القديمة تم اعتمادا على الرواة الذين أخذناها عنهم. وقد اشترطنا فيهم الأمور التالية، مراعاة للتجانس والأصالة(2) :

أ) أن يكونوا من أصل فاسي من مواليد المدينة القديمة ومن الذين لازالوا يقيمون بها.

ب) أن يتعدّى سنهم الخمسين ذكورا كانوا أو إناثا.

ج) أن يكونوا «أميين»، حتّى تبقَى لهجتهم بعيدة نسبيا عن تأثير العربية الفصحَى أو أية لغة أخرى.

أما أصل هذه اللهجة العربية فيمكن الرجوع في موضوعه إلى القسم الأول من «خريطة فاس اللسانية»(3).

2) العربية الفصحَى : تعريف وتحديد

2.1.-المراد بالعربية الفصحَى هنا، اللغة التي حدد مجالها ومصادرها نحاة العربية

(1) انظر مقدمة الرسالة التي تقدمت بها لنيل دكتوراة السلك الثالث في دجنبر 1979 تحت عنوان Phonologie et Morphologie de l'ancien fassi. (Parler arabe marocain) من ص 24 إلى 39 توجد نسخة منها بخزانة كلية الآداب بفاس.

(2) نفسه ص : 38—39.

(3) انظر أعمال نَدوة المدينة المغاربية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس، تحت الطبع.

المتقدمون[4]، ووصفوا أبنيتها وضبطوا قواعدها الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية، فجمع كل هذا سيبويه في «الكتاب» وأكمل ما بقي منه من جاء بعده من علماء اللغة المتقدمين والمتأخرين.

2.2. مصادر النظام الصوتي للعربية الفصحَى :

إن مقارنة بعض مؤلفات النحاة المتقدمين، وبعض المتأخرين تمكن من الزعم بأن النتائج التي انتهَى إليها سيبويه في دراسته لأصوات العربية الفصحَى سليمة وصحيحة في مجملها، يوافقه عليها كل من جاء بعده من هؤلاء وأولئك[5].

يقول ابن جني مثلا في «سر صناعة الإعراب» (باب أسماء الحروف) : «فأما ترتيبها [الحروف] في كتاب العين ففيه خَلط واضطراب ومخالفة لما قدمناه مما رتبه سيبويه وتلاه أصحابه عليه وهو الصواب الذي يشهد التأمل له بصحته» ص 51.

اعتبارا لما تقدم ذكره، اكتفينا في وضع النظام الصوتي للعربية الفصحَى بما جاء به سيبويه[6] وابن جني[7] في هذا الباب، مع الاستعانة بجان كونتينو (J. Cantineau) «دروس في علم أصوات العربية»[8] وتمام حسان «اللغة العربية معناها ومبناها»[9]

---

(4) انظر، في موضوع جمع الفصحى، ص : وما بعدها.

(5) انظر على سبيل المثال لا الحصر.

أ) المقتضب للمبرد ج 1، ص 192 إلى 196، تحقيق محمد عبد الخالق عظيمة، عالم الكتب، بيروت، د.ت.

ب) ابن جني «سر صناعة الاعراب» ج 1، تحقيق لجنة من الأساتذة، شركة ومطبعة مصطفَى البابي الحلبي وأولاده بمصر، 1954.

جـ) ابن عصفور : «الممتع في التصريف» ج 2 ص : 668ـ678، تحقيق فخر الدين قباوة، دار الآفاق الجديدة، بيروت 1970.

د) تمام حسان : اللغة العربية معناها ومبناها من ص 49 إلى 63، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1973.

(6) سيبويه : الكتاب، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1975.

(7) ابن جني «سر صناعة الاعراب» ج : 1.

(8) جون كونتينو : J. Cantineau : Cours de phonétique arabe, KlincKsieck, Paris, 1960

(9) انظر الهامش 5، د.

نظام الصوامت وحروف اللين في العربية الفصحى
اعتمادا على سيبويه الكتاب، «ج 4» «باب الادغام».

المخارج	شديد							بين الشديد والرخو	رخو				لين	
	مجهور		مهموس		منحرف	أنفي	مكرر	مجهور	مجهور		مهموس			
	مطبق	غير مطبق	مطبق	غير مطبق					مطبق	غير مطبق	مطبق	غير مطبق		
ما بين الشفتين		ب				م							و	1
ما بين باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا												ف		1
ما بين طرف اللسان وأطراف الثنايا									ظ	ذ		ث		2
ما بين طرف اللسان وأصول الثنايا	ط	د		ت										3
ما بين طرف اللسان وفويق الثنايا										ز	ص	س		4
ما بين أدنى حافة اللسان إلى الطرف وما فويق الثنايا						ن								5
ما بين أدنى حافة اللسان إلى طرفه ما فويق الثنايا، ادخل في ظهر اللسان							ر							5
من أدنى حافة اللسان من بينها وبين ما يليها من الحنك					ل									5
من أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس									ض					5
من وسط اللسان ووسط الحنك		ج										ش	ي	6
من مؤخر اللسان وما فوقه من الحنك				ك										7
من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك		ق												7
من أدنى الحلق										غ		خ		8
من وسط الحلق								ع				ح		9
من أقصى الحلق												هـ		21

جدول رقم 1

نظام الصوامت وحروف اللين في الدارجة المغربية
الفاسية القديمة نموذجا

	شديد				رخو				متفشية		منحرف		أنفي	لين
	مهموس		مجهور		مهموس		مجهور		مهموس	مجهور				
	مطبق	غير مطبق	مطبق	غير مطبق	مطبق	غير مطبق	مطبق	غيرم						
شفوي			ب م	ب									م	و
شفوي أسناني أسناني	ط×	ت	د م	د		ف							ن	
لثوي (أصول الثنايا)					ص	س	ز م	ز				ل		
أدنى حنكي (فويق الثنايا)									ش×	ج	ر م	ر		ي
أقصى حنكي		ك		گ										
لهوي						خ		غ						
حلقي						ح		ع×						
حنجري (أقصى الحلق)				ء		هـ								

ملاحظة : م ترمز إلى أن الحرف مطبق

جدول رقم : 2

وكمال بشر «علم اللغة : الأصوات»[10].

2.3. **المصطلح** : سنحاول جهد الإمكان الاحتفاظ بالمصطلحات الصوتية التي استعملها النحاة العرب المتقدمون. وهكذا نرمز لمفهوم Phonème بحرف[11]، وConsonne بصامت، وVoyelle بمصوِّت، وSemi-voyelle بلين، وSyllabe بمقطع، وLiquide بمنحرف الخ(*).

بعد هذا التمهيد المقتضب ننتقل إلى صلب الموضوع، فنبدأ بمقارنة الصوامت وحروف اللين في النظامين (الفصيح والدارج) فالمصتات ونختمه بمقارنة تركيب المقطع.

3) مقارنة النظامين الصوتيين (انظر الجدولين رقم 1 و2).

3.1. الصوامت

3.1.1. الصوامت الشفوية :

تعرف اللغة العربية الفصحَى الصوامت الشفوية التالية : ب، وم، وف، وتعريفها كمايلي :

ب : شفوي شديد مجهور غير مطبق.

م : شفوي شديد أنفي غير مطبق.

ف : شفوي ـــ أسناني رخو مهموس غير مطبق.

أما الفاسية القديمة فتعرف الصوامت الشفوية التالية :

ب : شفوي شديد مجهور غير مطبق.

---

(10) كمال محمد بشر : علم اللغة العام، الأصوات، دار المعارف بمصر، 1973.

(11) ان كلمة «حرف» هي الترجمة المناسبة للمصطلح الفرنسي Phonème فقد أشار ابن جني في «سر صناعة الاعراب» ج 1 ص 19 إلى أن متقدمي النحويين كانوا يسمون الحركات حروفا صغيرة وهكذا كانت كل الأصوات المميزة عندهم «حروفا» سواء كانت مصوتة (Vocalique) أو صامتة Consonantique أو نصف مصوتة (Semi-vocalique). انظر أعلاه ص 64.

(*) انظر الجدولين رقم 1 و2.

ب م : شفوي شديد مجهور مطبق.

م : شفوي أنفي.

ف : شفوي ــ أسناني رخو مهموس.

3.1.2. الصوامت بين ــ الأسنانية :

تعرف العربية الفصحَى الصوامت بين ــ الأسنانية التالية :

ظ : بين ــ أسناني رخو مجهور مطبق.

ذ : بين ــ أسناني رخو مجهور غير مطبق.

ث : بين ــ أسناني رخو مهموس غير مطبق.

أما الفاسية القديمة، فلا تعرف هذا الصنف من الصوامت.

3.1.3. الصوامت الاسنانية :

تعرف العربية الفصحَى الصوامت الاسنانية التالية :

ط : أسناني شديد مجهور مطبق (حسب سيبويه).

د : أسناني شديد مجهور غير مطبق.

ت : أسناني شديد مهموس غير مطبق.

وتعرف الفاسية القديمة الصوامت الاسنانية التالية :

د : أسناني شديد مجهور غير مطبق.

دم : أسناني شديد مجهور مطبق.

ط(*) : أسناني شديد مهموس مطبق.

ت : أسناني شديد مهموس غير مطبق.

ن : أسناني شديد أنفي.

3.1.4. الصوامت اللثوية :

تعرف العربية الفصحَى الصوامت اللثوية التالية :

(*) انظر الجدول رقم 1.

ز : لثوي رخو مجهور غير مطبق.

ص : لثوي رخو مهموس مطبق.

س : لثوي رخو مهموس غير مطبق.

أما الفاسية القديمة فتعرف الصوامت اللثوية التالية :

ز : لثوي رخو مجهور غير مطبق.

زم : لثوي رخو مجهور مطبق.

ص م : لثوي رخو مهموس مطبق.

س: لثوي رخو مهموس غير مطبق.

ل : لثوي منحرف غير مطبق.

3.1.5. الصوامت الأدنَى ــ حنكية :

تعرف العربية الفصحَى الصوامت الأدنى ــ حنكية التالية :

ن : ادنى ــ حنكي شديد أنفي.

ر : أدنى حنكي شديد مكرر.

ل : ادنى ــ حنكي شديد منحرف.

ض : ادنى ــ حنكي رخو مجهور مطبق.

وتعرف الفاسية القديمة الصوامت الأدنَى ــ حنكية التالية :

ر أدنى ــ حنكي منحرف غير مطبق.

رم : أدنى ــ حنكي منحرف مطبق.

ج° أدنى ــ حنكي متفش مجهور.

ش° : أدنى ــ حنكي متفش مهموس.

3.1.6. الصوامت الوسط ــ حنكية

يوجد بالفصحَى صامتان من هذا المخرج هما :

(*) قارن بين الجدولين.

ج وسط ــ حنكي شديد مجهور غير مطبق.

ش وسط ــ حنكي رخو مهموس غير مطبق.

أما الفاسية القديمة فلا تعرف هذا الصنف من الصوامت.

3.1.7. الصوامت الأقصَى ــ حنكية :

تعرف العربية الفصحَى صامتين من هذا المخرج هما :

ك أقصى ــ حنكي مهموس غير مطبق شديد.

ق أقصَى ــ حنكي مجهور غير مطبق شديد.

وتعرف الفاسية القديمة صامتين هما :

ك أقصى ــ حنكي مهموس غير مطبق شديد.

ق أقصَى ــ حنكي مجهور غير مطبق شديد.

وتعرف الفاسية القديمة صامتين هما :

ك أقصَى ــ حنكي مهموس شديد غير مطبق.

ك أقصَى ــ حنكي مجهور شديد غير مطبق.

3.1.8. الصوامت اللهوية :

تعرف العربية الفصحَى الصوامت اللهوية التالية :

غ لهوي رخو مجهور غير مطبق.

خ : لهوي رخو مهموس غير مطبق.

وتعرفَ الفاسية القديمة نفس الصامتين

3.1.9. الصوامت الحلقية

تعرف العربية الفصحَى الصوامت الحلقية التالية :

ع حلقي بين الشديد والرخو مجهور غير مطبق.

ح حلقي رخو مهموس غير مطبق.

وتعرف الفاسية القديمة صامتين هما :

ع   حلقي رخو مجهور غير مطبق.

ح   حلقي رخو مهموس غير مطبق.

3.1.10. الصوامت الحنجرية :

تعرف العربية الفصحَى من هذا الصنف صامتين هما :

ء   شديد مجهور غير مطبق (حسب سيبويه).

هـ : رخو مهموس غير مطبق.

وتعرف الفاسية القديمة صامتين هما :

ء : شديد بين الهمس والجهر غير مطبق.

هـ   رخو مهموس غير مطبق.

3.2. حروف اللين

يوجد بالعربية الفصْحَى وبالفاسية القديمة كذلك حرفا لين هما :

و : شفوي.

ي : وسط ـــ حنكي.

تنتظم الحروف الصوامت وحروف اللين في النظامين الفصيح والدارج في مجموعات على الشكل التالي :

النظام الصوتي للعربية الفصحَى

المجموعات

الأزواج	المخارج	الصفات	
	شفوي	أنفي	غير أنفي
	ب	—	+
	م	+	—

وسط حنكي	مجهور	مهموس
ج	+	—
ش	—	+

لهوي	مجهور	مهموس
غ	+	—
خ	—	+

حلقي	مجهور	مهموس
ع	+	—
ح	—	+

حنجري	مجهور	مهموس
ء	+	—
هـ	—	+

المثلثات

بين أسناني	مهموس	مجهور	مطبق
ذ	—	+	—
ظ	—	+	+
ث	+	—	—

أسناني	مجهور	مهموس	مطبق
د	+	—	—
ط	+	—	+
ت	—	+	—

لثوي	مجهور	مهموس	مطبق
ز	+	—	—
س	—	+	—
ص	—	+	+

الحروف (الفونيمات) المنعزلة :

ف، ن، ل، ض، ك، ق، ر، و، ي.

النظام الصوتي للفاسية القديمة

المجوعات

الأزواج	المخارج	الصفات		
	أقصَى حنكي	مهموس	مجهور	
	ك	+	—	
	ك	—	+	
	لهوي			
	غ	—	+	
	خ	+	—	
	حلقي			
	ح	+	—	
	ع	—	+	
	حنجري	رخو	شديد	
	ء	—	+	
	هـ	+	—	
المثلثات	شفوي	مجهور	مطبق	أنفي
	ب	+	—	—
	ب م	+	+	—
	م	—	—	+
المربعات	لثوي	مجهور	مهموس	مطبق
	س	—	+	—
	ص	—	+	+
	ز	+	—	—
	زم	+	—	+
	أدنَى حنكي			
	جْ	+	—	—

ش°	—	+	—
ر	+	—	—
رم	+	—	+
أسناني			
ت	—	+	—
ط°	—	+	+
د	+	—	—
دم	+	—	+

الحروف (الفونيمات) المنعزلة :

ف، ن، ي، ل، و.

ملاحظة : رمز الميم يشير إلى أن الحرف (الفونيم) مطبق.

3.3. ان مقارنة النظام الصوتي للفاسية القديمة بالنظام الصوتي الفصيح تمكن من ملاحظة المسائل التالية في الفاسية القديمة :

أ) اختفاء الهمزة الأصلية من هذه اللهجة.

مثلا : lʾărḍŭ(*) → lerḍ

ب) تحول القاف الأصلية إلى صوت جديد هو ء /ɔ/ وتحول الضاد إلى دم /ḍ/ مثلا :

qălbŭn → ʾelb

ḍărăbă → ḍreb

جـ) اندماج الصوامت بين ــ الأسنانية الأصلية في الصوامت الاسنانية :

ث ــ ت (ثلاثة) ṯălātătun → tlată

ذ ــ د (ذهب) dăhăbŭn → dheb

ظ ــ دم (ظهر) ḏăhără → ḍher

---

(٥) نرمز للعلامة Chewa ب /e/ تسهيلا لعمل الطابع.

د) ظهور صوامت جديدة في الفاسية القديمة هي :

دم، رم، ب م، زم، وك.

أمثلة :

دم	:	derb (درْب)
		ḍerb (ضرْب)
رم		rāb (تهدَّم)
		ṛāb (صار جبنا) (الحليب)
ب م	:	būs (قُبَل)
		ḅūs (إهمال)
زم		ɛezza (قدم التعَازي)
		ɛeẓẓa (ضغط)
ك	:	bekri (باكرا)
		begri (بَقَرْ)
		gedra (قِدْر)
		ˀedra (أُكلة فاسية)

هـ) تحول الجيم من الشدة إلى الرخاوة والطاء من الجهر (حسب سيبويه) إلى الهمس، والراء من التكرار إلى عدمه الخ.

رغم كل هذه التحولات التي تظهر في نظام الفاسية القديمة، بقي عدد الوحدات الصوتية الصامتة واللينة هو هو في النظامين الفصيح والدارج، فهو في كليهما ثمانية وعشرون صامتا وحرف لين ؛ ومع هذا، فإن ظهور صوامت جديدة في الفاسية القديمة، وتحول أخرى، واختفاء ثالثة، جعل النظام الصوتي لهذه اللهجة العربية الحضرية يعرف تغيرات مهمة أدت إلى إعادة بنائه على شكل مغاير لبناء العربية الفصحَى. فمقارنة النظامين الصوتيين تمكن من ملاحظة الظواهر التالية :

3.3.1. إن ما يميز النظام الصوتي الفصيح هو وجود عدد كبير من الحروف (الفونيمات) المنعزلة التي لا تنتمي إلى مجموعات، فقرابة ثلث الوحدات المكوِّنة له

تبقَى منفردة (تسعة حروف) وتنتظم الحروف الباقية في مجموعات الأزواج والمثلثات (انظر الجدول رقم 3).

3.3.2. أما النظام الصوتي الفاسي فإنه يتميز بوجود عدد قليل نسبيا من الحروف المنعزلة (خمسة حروف) وتنتظم باقي الحروف في مجموعات الأزواج والمثلثات والمربعات (انظر الجدول رقم 4).

3.3.3. إعادة ترتيب الحروف الصوامت في الفاسية القديمة تم انطلاقا من الفصحى(*) كمايلي :

أ) المثنى الشفوي ب/م أصبح مثلثا في الفاسية بانضمام صامت جديد إليه هو بم : بمب م.

ب) فُتِّتَ المثلث بين ـــ الاسناني، إذ تحول الثاء تاء والظاء دالا مطبقا والذال دال فانقرضت الحروف بين ـــ الاسنانية من الفاسية.

جـ) أضيف إلى المثلث الاسناني د ت ط صامت جديد هو دم فأصبح مربعا في الفاسية :

ت ـــ ط

د ـــ دم

د) وقع نفس الشيء بالنسبة للمثلث اللثوي : س ز ص بظهور (زم) في الفاسية :

س ـــ ص

ز ـــ زم

هـ) تَحَوُّل الجيم من صامت شديد في الفصحَى إلى رخو في الفاسية جعل المثنى ج/ش يدخل في تكوين مجموعة جديدة تتألف من أربعة صوامت هي :

ج ـــ ش

ر ـــ رم

و) دخل الكاف الذي كان منعزلا في الفصحَى في تقابل مع صامت جديد هو ڭ : ك ـــ ڭ.

السر إذن في انخفاض الحروف المنعزلة في الفاسية القديمة هو تحول الضاد إلى دم والقاف إلى ء، وظهور راء مطبق إلى جانب الراء الأصلي وظهور صامت جديد هو كَ إلى جانب الكاف الأصلي. وهكذا انخفض عدد الحروف المنعزلة من تسعة في الفصحَى إلى خمسة في الفاسية القديمة. وهي ظاهرة تتفق والقواعد العامة للفونلوجيا التي تصف التطورات الداخلية التي تعرفها الأنظمة الصوتية للغات الانسانية.

3.4. المصوتـــات

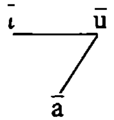
3.4.1 ينحصر نظام مصوتات العربية الفصحَى في ستة حروف (فونيمات) ثلاثة منها قصيرة وتقابلها ثلاثة طويلة[12] :

ā / ǎ
ū / ǔ
ī / ǐ

3.4.2. يتألف نظام مصوتات الفاسية القديمة من خمسة حروف نعتمد في التمييز بينها المدة، أولا، ثم الصفات ودرجة الانفتاح.

أ) المدة : تعرف الفاسية ثلاثة مصوتات طويلة واثنين قصيرين. لقد احتفظت هذه اللهجة العربية إذن بالمصوتات الطويلة الثلاثة التي توجد بالفصحَى وهي :

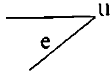
ā طويل منفتح
ī طويل منفرج
ū طويل مستدير



أما المصوتات القصيرة الفصحَى فلم تحتفظ منها إلا بصوت واحد هو ǔ (الضمة) وضمت إليه مصوتا مركزيا قصيراً هو (chewa) /e/.

---

(12) انظر «الدرس الصوتي الحديث» أعلاه.



3.4.3. نستطيع، بمقارنة توزيع مصوتات النظامين (الفصيح والدارج) استخلاص الملاحظات التالية :

أ) تُقابِل المصوتات الطويلة في الفاسية القديمة مثيلاتها في جل الكلمات الفصيحة :

الفاسية القديمة	العربية الفصحَى
bāε	bäεǎ (بَاعَ)
y'ūl	yǎqūlǔ (يَقُولُ)
εeFrιt	εǐFrιt^{ǔn} (عِفْرِيتٌ)

وتُقابِل في بعض الكلمات الفصيحة المصوتات القصيرة.

الفاسية القديمة	العربية الفصحَى
Kūra	Kŭrăt^{un} (كُرَة)
rιya	rǐ'ăt^{un} (رِئة)
Ṣ̣ιFa	Ṣ̣ǐFăt^{un} (صفة)

ب) المصوتات القصيرة في الفاسية القديمة :

المصوت /ŭ/ يقابل نظيره الفصيح في بعض الكلمات القليلة :

الفاسية القديمة	العربية الفصحَى
dxŭl	'ŭdxŭl (اُدْخُل)

ويمثل المصوت المركزي chewa)e) في جل الكلمات الفصيحة ǎ وǐ وŭ القصيرة :

العربية الفصحَى	الفاسية القديمة
Kǎtǎbǎ (كتب)	Kteb
yǎnṣǔrǔ (ينصر)	yenser
yǎḥsǐbǔ (يحسب)	yehseb

يتبين مما تقدم ان الفاسية القديمة قد احتفظت بمصوتات الفصحَى الطويلة واختصرت القصيرة في مصوتين هما ŭ و e أولهما قليل الورود في الكلمات وثانيهما كثير يلعب دورا تمييزيا مهما في هذه اللهجة. مثلا :

دخل (الماضي) dxel

ادخل (الأمر) dxŭl

دُخول (المصدر) dxūl

فَرَح (المصدر) Ferh

فرِح (الفعل) Freh

3.5. تركيب المقطع (La syllabe)

نقتصر هنا على ذكر المقاطع الممكنة التشكُّل في العربية الفصحَى وفي الفاسية القديمة مع إبداء بعض الملاحظات الوجيزة. ومن أجل دراسة مفصلة في الموضوع، يمكن الرجوع إلى دراستنا عن تراكيب المقطع في العربية الفصحَى المنشورة هنا.

3.5.1. المقاطع الممكنة التّشكّل في الفصحَى أربعة هي :

أ) صامت + مصوت قصير : CV̌ (دخل) dǎ/xǎ/lǎ

ب) صامت + مصوت طويل : CV̌ (نَامَا) nā/mā

جـ) صامت + مصوت قصير + صامت : CV̌C (لم) lǎm

د) صامت + مصوت طويل + صامت : CV̄C (باب، بالوقف) bāb

ملاحظات لابد من التذكير بها هنا لكي تتضح نقط الاتفاق والاختلاف بين الفصحى والفاسية.

ــ يبتدئ المقطع في الفصحَى ــ دائما ــ بحرف واحد صامت سواء كان في صدر السلسة الكلامية أو وسطها أو آخرها.

ــ لا تعرف الفصحَى المقطع المزدوج الإقفال لأن العرب لا تجمع بين الساكنين.

ــ لا يمكن أن يتقدم المصوِّتَ، نواة المقطع أكثر من صامت واحد، ولو في صدر سلسلة الكلامية، لأن العرب لا تبتدئ بساكن.

ــ يمكن للمصوت النواة أن يكون طويلا أو قصيرا سواء كان المقطع منفتحا أو مقفلا.

لا يتحقق المقطع المنفتح القصير ($C\check{V}$) في آخر السلسلة الكلامية لأن العرب لا تقف على متحرك.

3.5.2. المقاطع التي يمكن أن تتشكل في الفاسية القديمة ثلاثة أنواع هي :

ــ المقاطع المنفتحة :

أ) مصوت طويل : $\bar{V}$ (ألف) ā/leF

ب) صامت + مصوت طويل : $C\bar{V}$ (الآن) dā/bā

جـ) صامت + صامت ثان + مصوت طويل : $C_1C_2\bar{V}$ (بَدَأ) bdā

د) صامت مكرر + صامت + مصوت طويل : $C_1C_1C_2\bar{V}$ (الأولاد) ddrā/ri

ــ المقاطع المقفولة :

أ) مصوت طويل + صامت واحد : $\bar{V}C$ (نعم) īh

ب) مصوت قصير + صامتان : VC_1C_2 (أرض) erḍ

جـ) صامت + مصوت (طويل أو قصير) + صامت : CVC (مجموع) meg/mūɛ

د) صامتان + مصوت (طويل أو قصير) + صامت C_1C_2VC (جَمَل) jmel (فراش) Frāŝ

هـ) صامت مكرر + صامت + مصوت (طويل أو قصير) + صامت $C_1C_1C_2VC_3$ (الخصام) ḍḍbāz

— المقاطع المزدوجة الإقفال

أ) صامت + مصوت (طويل أو قصير) + صامتان CVCC (شدّ) šedd

ب) صامتان + مصوت (طويل أو قصير) + صامتان CCVCC (في الأسفل) theht

ملاحظـــات :

— ان المقطعين المنفتحين (أ) و(ب) والمقطعين المقفولين (أ) و(ب) أشكال نادرة في الفاسية لا تتحقق إلا في صدر السلسلة الكلامية.

— لا يظهر المقطع المنفتح الطويل (جـ) إلا في صدر الكلمة.

— لا يظهر المقطع المنفتح الطويل (د) والمقطع المقفول (هـ) إلا في صدر السلسلة الكلامية في الاسم المعرف بأداة التعريف المدغومة في الصامت الذي يليه.

— المقطع المنفتح لا يكون إلا طويلا.

3.5.3. يتضح من مقارنة التراكيب المقطعية في النظامين الصوتيين أن الفاسية القديمة قد احتفظت بكل أشكال مقاطع العربية الفصحَى باستثناء المقطع المفتوح القصير ($C\check{V}$) وأضافت إليها أشكالا جديدة هي :

— المقطع المكون من مصوت طويل لا غير.

— المقطع المكون من مصوت طويل + صامت.

— المقطع المكون من مصوت قصير + صامتان.

— المقطع المنفتح الطويل الذي يتقدم نواته صامتان أو ثلاثة.

— المقطع القصير والطويل المزدوج الإقفال.

ان السر في ظهور هذه التراكيب المقطعية الجديدة في الفاسية القديمة يمكن تفسيره كمايلي :

أ) اختفاء الهمزة الأصلية في نظام الفاسية الصوتي سَمح بتشكُّل المقاطع التي تبتدئ بمصوت طويل أو قصير، فوجود مصوت في صدر المقطع دليل على اختفاء الهمزة من هذه اللهجة.

ب) إن اختفاء المقطع المنفتح القصير من هذه اللهجة نتج عن سقوط المصوت القصير أو تحوله من مكانه كلما وقع ضمن مقطع منفتح.

ــ السقوط	العربية الفصحَى	الفاسية القديمة
وَلَدٌ	wăläd[un]	weld
كَتَبَ	Kătăbă	Kteb
ــ التحول		
دخَلَ	dăxălă	dxel
دَخَلتْ	dăxălăt	dexlet

جـ) سقوط أو تحول المصوت القصير كلما وقع في نهاية المقطع جعل متكلمي الفاسية القديمة يبتدئون السلسلة الكلامية ــ أحيانا ــ بساكن ويجمعون بين الساكنين عند الوقف على الخصوص.

هذا هو ما يمكن أن يقال باختصار شديد عن النظامين الصوتيين العربيين الفصيح والدارج.

□ البنية المقطعية العربية

1.1. تعتمد هذه الدراسة كمنطلق لها ما اطلعنا عليه من الأبحاث التي تناولت بنية المقطع في العربية الفصحى بالدرس والتحليل.

وهكذا فإننا سننظر في المقطع من الزاوية الفونتيكية الوظيفية أي الفونولوجية. ومعنى هذا أننا لن نأخذ بعين الاعتبار إلا الوحدات الصوتية التمييزية، أي الحروف(1).

1.2. يجمع كل من اطلعنا على دراساتهم(2)، ممن تناولوا موضوع المقطع في العربية الفصحى وفي دوارجها(3)، على اعتبار المصوت عنصرا أساسيا ومركزيا في تكوين المقطع في هذه اللغة، لا يستقيم بدونه ولا يشاركه في هذا الاختصاص أي صامت أو

---

(1) ذكر ابن جني في «سر صناعة الاعراب» (ج 1 ص 19 تحقيق لجنة من الأساتذة : نشر شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر سنة 1954) ان متقدمي النحويين كانوا يسمون الحركات أي المصوتات حروفا صغيرة بالاضافة إلى تسمية الصوامت وحروف اللين بنفس الاسم مما جعلنا نعتمد لفظ «حرف» كترجمة للمصطلح الفرنسي Phonème الذي يطلق في الصوتيات الوظيفية على أصغر وحدة صوتية تمييزة.

(2) انظر على سبيل المثال لا الحصر :
— د. إبراهيم أنيس : الأصوات اللغوية. مكتبة الانجلو المصرية الطبعة الثالثة 1961.
— د. تمام حسان : مناهج البحث في اللغة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1956.
واللغة العربية معناها ومبناها نفس المؤلف ونفس الدار 1973.
— د. كمال محمد بشر : علم اللغة العام، الأصوات دار المعارف بمصر، 1973.
— ريمون طحان : الألسنية العربية ج 1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1972.
— د. عبد الصبور شاهين : المنهج الصوتي للبنية العربية، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1980:
— د. رمضان عبد التواب : المدخل إلى علم اللغة، مكتبة الخانجي بالقاهرة، 1980.
M. COHEN : le parler arabe des juifs d'alger, Leroux, Paris 1970.
J. CONTINEAU : Etudes de linguistique arabe, Klincksieck, Paris, 1960.
H. Fleisch : Esquisse d'une structure linguistique de l'arabe classique, U. St. Josephe, Beyrouth, 1956.
D. COHEN : Le dialecte arabe Hassaniya de Mauritanie, Klincksieck, Paris, 1963.

(3) يمكن الرجوع، في موضوع الفرق بين العربية القديمة والفصحى والمعاصرة أو الفصيحة واللهجات والدوارج العربية، إلى «الموسوعة الاسلامية. Encyclopédie de l'Islame. Nouvelle =

حرف لين كما هو الحال في بعض اللغات الطبيعية(4). وهو مذهب لا جدال فيه. وعليه، فعدد المقاطع في الجملة العربية يساوي عدد المصوتات فيها.

2.2. قلنا «جملة» ولم نقل «كلمة مفردة» لأن التركيب المقطعي يخضع في العربية للأولى لا للثانية كما سيتضح فيما بعد. والمراد بالجملة هنا ما يقع، من السلسلة الكلامية بين وقفتين فحدّا الجملة هما لحظتا الصمت اللتان تسبق إحداهما الشروع في التلفظ بالكلام وتلي الثانية نهايته.

1.3. يكاد يتفق كل اللغويين العرب المحدثين على تحديد البنية المقطعية الفصحى في خمسة تراكيب تتشكل كالتالي :

أ) صامت + مصوت قصير : /ص + م ق/

ب) صامت + مصوت طويل : /ص + م ط/

جـ) صامت + مصوت قصير + صامت : /ص + م ق + ص/

د) صامت + مصوت طويل + صامت : /ص + م ط + ص/

هـ) صامت + مصوت قصير + صامت + صامت : /ض + م ق + ص + ص/.

نجد هذا ـــ مثلا ـــ عند الدكتور إبراهيم أنيس في «الأصوات اللغوية»(5) وعند محمد الأنطاكي في «المحيط في أصوات العربية وصرفها ونحوها»(6). وعند الدكتور عبد الصبور شاهين في «المنهج الصوتي للبنية العربية»(7) كما نجد نفس الشيء عند الدكتور رمضان عبد التواب في «المدخل إلى علم اللغة»(8). ويضيف الدكتور تمام حسان إلى هذه التراكيب السالفة الذكر تركيبا سادسا يعطيه الشكل التالي : /م ق +

= édition, Maisonneuve, Paris 1960. الصفحة 579 وما يليها فقد خص مؤلفوها هذا الموضوع بمقال مفصل.

(4) انظر : N.R. Troubetzkoy : Principes de phonologie, tra. J. Cantineau, Klincksieck, Paris, 1976.

(5) إبراهيم أنيس، ص 163.

(6) ج 1، ص 48.

(7) ص : 31 ـــ 83.

(8) ص : 104.

ص/ في كتابه «مناهج البحث في اللغة[9] ويعوضه بشكل آخر هو صامت واحد فقط /ص/ في كتابه «اللغة العربية معناها ومبناها»[10].

2.3. ونبدأ بالتذكير بنظام المصوتات في العربية[11] قبل النظر في مختلف هذه الأشكال المقطعية.

ينحصر نظام مصوتات العربية الفصحى في ستة حروف (فونيمات) (Phonèmes).

الفتحة : منفتحة : a

الكسرة : منفرجة : i

الضمة : مضمومة أو مستديرة : u

هذه المصوتات الثلاثة إما أن تكون طويلة أو قصيرة :

ـــ فتحة/فتحة طويلة : ǎ/ā مثلا :

كتب/كاتب kǎtǎbǎ/kātǎbǎ

ـــ كسرة/كسرة طويلة : ǐ/ī مثلا :

جران/جيران žǐrān/žīrān

ـــ ضمة/ضمة طويلة ǔ/ū مثلا :

قتل/قوتل qǔtǐlǎ/qūtǐlǎ

وقد تتحقق المصوتات القصيرة في شكل موحد هو المصوت بين في سياقات خاصة كما سنرى.

3.3. تتشكل حول هذه المصوتات التراكيب المقطعية التالية :

أ : /ص + م ق/. ب : /ص+ م ط/. جـ : /ص + م ق + ص/. د : /ص + م ط + ص/. وهي أشكال لا اختلاف فيها يمكن التمثيل لكل واحد منها بالمقاطع المكونة للجملة التالية :

(9) ص : 173.

(10) ص : 69.

(11) انظر أعلاه.

مستقيمين /m ǔ s/t ǎ/q ĭ/m ī n/

د ب أ ج

وهذه التراكيب هي التي تنتظم ضمنها الجمل العربية وهي لا تخالف وصف اللغويين ونحاة العربية عامة، بل يمكن اعتبارها أساس تفاعيلهم الصرفية والعروضية[12] كذلك. والتراكيب (أ) و(ب) و(ج) هي الشائعة الغالبة في كلام العرب : أما (د) فقليل الذيوع لا يظهر إلا في أواخر الجمل حال الوقف وفي بعض التراكيب الخاصة كـ «أصامّ» جمع «أصمّ».

4. وننتقل الآن إلى فحص الأشكال المقطعية الباقية وهي /م ق + ص/ و/ص/ و/ص + م ق + ص + ص/ ونبدأ أولا بالشكلين المقطعيين اللذين انفرد بذكرهما الدكتور تمام حسان ثم ننظر بعد ذلك في الشكل المقطعي الأخير الذي يجمع على القول به كل اللغويين العرب الذين اطلعنا على دراساتهم.

1.4. يعتبر الدكتور تمام حسان «في كتابه مناهج البحث في اللغة» أن المتتالية /مصوت قصير + صامت/ يمكن أن تكوّن مقطعا تاما مستقلا في العربية الفصحى ويمثل لذلك بأداة التعريف وسين الاستفعال. وهو تركيب غريب على النظام الصوتي العربي. فأداة التعريف هي اللام الساكنة التي تتقدمها ـــ إذا وقعت في صدر الكلام ـــ همزة الوصل (المتحركة) المتلوة بمصوت قصير. وكتابتها الصوتية هي (....ʔăl) أما الشكل الذي ذكره د. تمام حسان فهو : (.....ăl) وهو شكل لا يتحقق في العربية الفصحى البتة في هذا السياق ولا في غيره. والدليل على ذلك ما ذكره النحاة المتقدمون في هذا الباب.

يقول ابن حني مثلا في «سر صناعة الإعراب» : «واعلم أن الحركة التي يتحملها الحرف [الصامت] لا تخلو أن تكون في المرتبة قبله أو بعده»[13] وقد برهن على أنها

---

(12) انظر : محمد العلمي، «الأسباب والأوتاد والقواصل بين المقطع والحركة والسكون» مجلة كلية الآداب بفاس العددان 2 و3.

(13) ابن جني : سر صناعة الإعراب. ص : 32 ج 1، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى الباني الحلبي وأولاده بمصر، 1954.

لا تكون إلا بعده. ومما ذكره لتأكيد صحة رأيه قوله : «ودلالة أخرى تدل على أن حركة الحرف بعده وهي أنك إذا أشبعت الحركة تممتها حرف مدٍّ» [أي مصوتا طويلا]. (ج 1 ص 36) ويضيف ابن جني في نفس السياق «ولكنه لما كان الحرف [الصامت] أقوى من الحركة [المصوت] وكان الحرف قد يوجد ولا حركة معه، وكانت الحركة لا توجد إلا عند وجوده، صارت كأنها قد حلته وصار هو كأنه قد تضمنها تجَوزا لا حقيقة» ويمكن استخلاص أمرين أساسيين من هذا القول هما :

أولا : إن المصوت لا يمكن أن يتحقق إلا إذا تحقق الصامت أو حرف اللين. في حين قد يوجد الصامت (أو حرف اللين) ولا مصوت معه عندما يكون الأول ساكنا.

ثانيا : إن المصوت يلي الصامت (أو حرف اللين) الذي يتحمله في العربية ولا يسبقه أبدا. وهذه قاعدة تشمل سائر اللغات الإنسانية كما أكدت ذلك الدراسات الصوتية الحديثة ويمكن إضافة نقطة ثالثة هي : لو كانت همزة الوصل مصوتا لما غابت حقيقتها عن نحاة العربية ولنبهوا إلى هذا، ولو كانت فعلا مصوتا لما سموها كذلك، فالهمزة عندهم غير «الألف» أو «الحركة» بل هي «حرف صحيح».

2.4. ولاشك أن الدكتور تمام حسان قد تنبه إلى استحالة تحقق المقطع /م ق + ص/ في العربية الفصحى فلم يعد إلى ذكره في كتابه «اللغة العربية : معناها ومبناها» وعوضه ببناء جديد يتألف من صامت واحد كما تقدم. وهذا البناء غير ممكن كذلك في الفصحى لأن المصوت (القصير أو الطويل) هو الذي يمكن أن يشكل وحده نواة المقطع أي الحرف المقطعي كما أن المقطع لابد، أن يبتدئ في هذه اللغة بصامت (أو حرف لين).

والشروط التي وضعها المؤلف لإمكانية تحقق هذا «المقطع الأقصر» /ص/، وهي أن يكون الصامت ساكنا متلوا بصامت متحرك وأن يكون في بداية الكلمة ويمثل له بلام التعريف وسين الاستفعال، إن هذه الشروط تطبق كلها على الصامت الثاني الذي يدخل في تكوين المقطع ذي الشكل التالي : /ص + م ق (م ط) + ص/ وقوله : «... حتى يصدق عليه أنه حين يمتنع الابتداء به تسبقه همزة الوصل» لا يضيف جديدا. فهمزة الوصل إذا تقدمت الصامت الساكن ألف معها ومع مصوتها مقطعا قصيرا مقفلا هو : /ص + م ق + ص/ وتوضيح ما تقدم كالتالي : لنأخذ أولا كلمة «الولد»، إن

وقعت في سياق الكلام في مثل : «جاء الولد» كانت كتابتها الصوتية هكذا :

žā?ă l wălăd (بالوقف)

وتقطيعها الصوتي هكذا :

žā (المقطع الأول)

?ăl (المقطع الثاني)

wă (المقطع الثالث)

lăd (المقطع الرابع).

وإن وقعت في صدر الكلام كانت كتابتها الصوتية هكذا : ....?ălwălăd

وتقطيعها هكذا :

?ăl (المقطع الأول)

wă (المقطع الثاني)

lăd (المقطع الثالث)

ولنأخذ الآن كلمة «الرجل» كتابتها في الحالة الأولى هي :

žā?ă rrăžŭl

وتقطيعها :

žā : المقطع الأول

?ăr : المقطع الثاني

ră : المقطع الثالث

žŭl : المقطع الرابع

وفي الحالة الثانية : ?ărrăžŭl

وتقطيعها :

?ăr : المقطع الأول

rǎ : المقطع الثاني

žǚl : المقطع الثالث.

وهكذا يتضح أن البنائين المقطعيين /م ق + ص/ و/ص/ لا يمكن أن يتحققا في العربية الفصحى.

3.4. بقي أن ننظر في التركيب المقطعي (هـ) ذي الشكل التالي :

/ص + م ق + ص + ص/ وهو بناء يقول عنه الدكتور عبد الصبور شاهين بأنه مرتبط بحالة الوقف على مثل كرب وفضل كما يتحقق في تصغير شابة على شويّة وكذلك دابة...»[14] ويقول عنه الدكتور تمام حسان «وهو المقطع الطويل بالتقاء الساكنين ويكثر في الوقف... ويأتي في غير الوقف كما في تصغير دابة مثلا حيث يصير دويبّة فهو ممثل في جزء من الكلمة هو «ويب...»[15].

والتمثيل لهذا التركيب المقطعي بالكلمات الثلاثية الساكنة العين الموقوف على لامها أو بجزء من دويبة أو شويبة فيه نظر، فنحاة العربية متفقون على القول بعدم جواز الجمع بين الصامتين الساكنين في الكلام العربي الفصيح في جميع رواتب الجملة سواء داخل الكلمة الواحدة أو في السياق التركيبي. يقول سيبويه مثلا : «... وذلك قولك هذا زيد بن عمرو. وإنما حذفوا التنوين من هذا النحو حيث كثر في كلامهم لأن التنوين حرف ساكن وقع بعده حرف ساكن، ومن كلامهم أن يحذفوا الأول إذا التقى ساكنان»[16] ويقول أيضا في نفس المعنى «وأما ردّ ويردّ فلم يدغموه لأنه لا يجوز أن يسكن حرفان فيلتقيا»[17] كما عقد سيبويه يابا خاصا بهذا الموضوع عنوانه «هذا باب الساكن الذي يكون قبل آخر الحروف فيحرك لكراهيتهم التقاء الساكنين»[18].

(14) المنهج الصوتي للبنية العربية ص : 37، 38.

(15) تمام حسان : اللغة العربية معناها ومبناها ص 69.

(16) سيبويه : الكتاب ج 3 ص 504 تحقيق عبد السلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1975.

(17) نفسه : ج : 3، ص : 535.

(18) نفسه : ج 4، ص : 173.

يظهر إذن أن هذا التركيب المقطعي يخالف قاعدة صوتية عامة في الفصحى وسنحاول توضيح ذلك بالبحث في الأساليب التي كان يعتمدها العرب لتجنب التقاء الصامتين الساكنين. ونبدأ أولا بمناقشة هذه القضية في الكلمات الثلاثية الساكنة العين الموقوف على آخرها ثم ننتقل بعدد ذلك للنظر في إمكانية تحقق هذه البنية في مثل «جزء من دويبة».

4.4. إذا كان النحاة يتفقون على القول بعدم إمكانية التقاء الصامتين الساكنين ولو في حال الوقف، أي في آخر الجملة، فإنهم قد يبدون مختلفين في توضيح السبيل الذي يسلكه العرب لتجنب هذا الالتقاء، ونستشهد بأقوال البعض منهم وسنقارن بينها من أجل البرهنة على ما نزعمه في هذا الباب وتوضيح ما قد يوحي بالاختلاف.

يذكر الزمخشري في المفصل في علم العربية، «... أن بعض العرب يحول ضمة الحرف الموقوف عليه وكسرته إلى الساكن قبله»[19]. ويضيف ابن يعيش، عند شرحه لهذا القول «والكوفيون يجيزون ذلك في المنصوب كما يجوز في المرفوع والمجرور. قالوا ذلك لأن الغرض من هذا النقل الخروج على عهدة الجمع بين الساكنين وذلك موجود في النصب كما هو موجود في الرفع والجر وهو قول سديد، والمذهب الأول لما ذكرناه»[20].

وهذه قاعدة معروفة في العربية وهي ما اصطلح على تسميته بالنقل فكلمة بكر bǎkrǔn... في الجملة سمت بكر sǎmǎt bǎkrǔn تصير عند الوقف عليها bǎkǔr، تلافيا لالتقاء صامتين ساكنين. ويتم هذا التجنب أيضا بالاتباع[21] وهو تحريك الصامت المتوسط (عين فعل fǎɛlǔn) بمصوت تابع لمصوت الصامت الأول من الكلمة الثلاثية.

الصامت المتوسط (عين فعل fǎɛlǔn) بمصوت تابع لمصوت الصامت الأول من الكلمة الثلاثية.

---

(19) الزمخشري : المفصل في علوم العربية. ص : 338، دار الجيل. د. ت.

(20) ابن يعيش : شرح المفصل ج 9 ص 70—73 عالم الكتب بيروت. د. ت.

(21) انظر في موضوعي النقل والاتباع : سيبويه، الكتاب، ج 4 ص 173 ومايليها.

وتطبق هذه القاعدة الثانية حسب سيبويه عندما يؤدي النقل إلى ظهور أبنية ليست من كلام العرب من مثل وزن فِعُل بكسر الفاء وضم العين. ويعتبر ابن جني أن عين الثلاثي الساكنة في الأصل تتحرك بمصوت بين بين حال الوقف على لام فعل făɛlŭn إذ يقول في «الخصائص»، في ختام حديثه عن طبيعة مصوتات الكلمات الثلاثية فعلمت بذلك مفارقة حال الساكن المحشو به لحال أول الحرف وآخره، فصار الساكن المتوسط ــ لما ذكرناه ــ كأنه لا ساكن ولا متحرك وتلك حال تخالف حالي ما قبله وما بعده، وهو الغرض الذي أريد منه وجيء به من أجله لأنه لا يبلغ حركة ما قبله فيجفو تتابع المتحركين، ولا سكون ما بعده فيفجأ بسكونه المتحرك الذي قبله فينقض عليه جهته وسمته...»(22).

أما ابن يعيش فيقول في «شرح المفصل»، «... اعلم أنه يجوز في الوقف الجمع بين ساكنين لأن الوقف يمكن الحرف ويستوفي صوته ويوفره على الحرف الموقوف عليه فيجري ذلك مجرى الحركة «المصوت» لقوة الصوت واستيعابه كما جرى المد في حروف المد مجرى الحركة...»(23) والعبارات الأخيرة توضح ما قد يبدو مخالفا للقانون الصوتي الخاص بتركيب وترتيب الحروف (الصوامت والمصوتات واللينة) في هذه اللغة، وهو جواز التقاء الساكنين الوارد في بداية نص ابن يعيش إذ الظاهر أن الخط العربي لم يكن يعرف شكلا خاصا وموحدا يرمز به للموصوت بين بين، فجعلت «ــ أحيانا ــ دائرة (السكون) علامة عليه بالإضافة للرمز لانعدام المصوتات. يقول ابن يعيش عند حديثه عن علامات الوقف : «فعلامة السكون خاء... فمعنى الخاء خفاء وخفيف لأن الساكن أخف من غيره، وبعض الكتاب يجعلها دالا خالصة ومنهم من يجعلها دائرة»(23). وهكذا يكون المراد من قول ابن يعيش بجواز الجمع بين سكونين الجمع بينهما في الرسم والكتابة لا في النطق لأن أحدهما في هذه الحالة، وهو الأول، يدل على انعدام الحركة «المصوت» نهائيا والأخير يدل على وجود مصوت بين بين. يقول سيبويه : «فإن كان الحرف الذي قبل حرف ساكنا لن يضعفوا، نحو عمرو وزيد وأشباه

---

(22) ابن جني : الخصائص ج 1 ص 59 دار الهدى بيروت، د.ت.

(23) ابن يعيش : نفسه ج 9، ص 68.

ذلك لأن الذي قبله لا يكون ما بعده ساكنا وهو ساكن، وقد يسكن ما بعدما هو بمنزلة لام خالد وراء فرج، فلما كان مثل ذلك سكن ما بعده ضاعفوه وبالغوا لئلا يكون بمنزلة ما يلزمه السكون. ولم يفعلوا ذلك بعمرو وزيد لأنهم قد علموا أنه لا تسكن أواخر هذا الضرب من كلامهم وقبله ساكن، ولكنهم يشمون ويرومون الحركة لئلا يكون بمنزلة الساكن الذي يلزمه السكون. وقد يدعون الاشمام وروم الحركة أيضا كما فعلوا بخالد ونحوه»[24].

يفهم من النصوص التي تقدمت أن العرب، عندما لم تكن تلجأ إلى النقل والاتباع لتجنب التقاء الساكنين، كانت تحرك الصامت ما قبل الأخير أو الأخير الموقوف عليه بمصوت بين بين نرمز له بالشكل التالي : /e/، تجنبا للالتباس. وهكذا يمكن القول بأن العرب الذين أخذت عنهم اللغة واستشهد بأقوالهم وأشعارهم كانوا ينطقون كلمة مثل «قبل» عند الوقف على آخرها كمايلي :

1) إما qăbŭl أو qăbăl : النقل أو الاتباع

2) وإما qăbel حسب ابن جني

3) وإما qăble حسب ابن يعيش

5.4. ويمكن تفسير طبيعة هذا المصوت بين بين باعتماد مفهوم الأرشيفنيم L'archiphonème[25] في الصوتيات الوظيفية. والأرشيفنيم هو شكل صوتي يتحد فيه حرفان (أو أكثر) متميزان في الأصل وظيفيا ولكنهما يظهران في شكل موحد بسبب اختفاء الصفات المميزة بينهما في بعض السياقات الصوتية الخاصة. والمصوت بين بين لا يظهر في العربية إلا في المقطع الأخير الموقوف عليه، والذي يجب أن يكون له في الأصل أحد الشكلين : (1) /ص + ص/ أو (2) /ص + م ق/، مسبوقا بمقطع مقفول. والسبب في تحول البناء الأصلي .(1) إلى /ص + e + ص/ ـــ حسب ما يمكن أن يفهم من كلام ابن جني ـــ، هو أن «بعض العرب» عندما كانوا يلجأون إلى الاتباع أو النقل، وهما الإجراءان الأساسيان لتجنب التقاء صامتين ساكنين[26] كانوا

(24) الكتاب ج 4 ص 171.

(25) انظر A. MARTINET : Eléments de linguistique générale, p : 76 et suite, ARMAND COLIN, Paris, 1974

(26) لقد تعرض كل من J. CANTINEAU و.H. FLEIS CH في كتابيهما السالفي الذكر، =

يحققون المصوت المقحوم بين الصامتين الموقوف على ثانيهما مصوتا بين بين أي أرشيفنيم، فلا هو بالفتحة ولا الكسرة ولا الضمة وإنما هو وسط بينها جميعا كما تعبر عن هذا التسمية نفسها. ونفس التفسير يمكن أن يصدق على كلام ابن يعيش عندما يعتبر الصامت الموقوف عليه بمثابة المتحرك لأن المصوت الأصلي (علامة الإعراب أو البناء) يتحول إلى مصوت بين بين. كما يمكن فهم هذا أيضا من كلام نفس المؤلف عند حديثه عما في الوقف من لغات حين يقول : «وأما الروم فصوت ضعيف كأنك تروم الحركة ولا تتممها وتختلسها اختلاسا» ويمكن استخلاص نفس المعنى أيضا من الوصف الذي يقدمه ابن الجزري للروم إذ يقول : وأما الروم فهو عند القراء عبارة عن النطق ببعض الحركة. وقال بعضهم هو تضعيف الصوت بالحركة حتى يذهب معظمها وكلا القولين واحد وهو عند النحاة عبارة عن النطق بالحركة بصوت خفي. وقال الجوهري في صحاحه : «روم الحركة الذي ذكره سيبويه هو حركة مختلسة مخفاة بضرب من التخفيف قال وهي أكثر من الاشمام لأنها تسمع وهي بزنة الحركة وإن كانت مختلسة مثل الهمزة بين بين»(27). الأصل إذا في المصوت بين بين الذي يظهر بعد عين الكلمات الثلاثية الموقوف على آخرها هو «حركة» البناء أو الإعراب المنقولة والمصوت التابع لمصوت الفاء كما أن الأصل في المصوت بين بين الذي بعد لام هذه الكلمات هو حركة الإعراب أو البناء.

فإن صح ما زعمناه وحاولنا البرهنة على استقامته، ارتفع الالتباس الذي قد نقع فيه بسبب سوء فهم كلام النحاة المتقدمين في موضوع التقاء الصامتين الساكنين حال الوقف. وأمكن القول كذلك بأن المصوتات القصيرة الثلاث تظهر في شكل موحد هو المصوت بين بين (e) في المقطعين (1) و(2) عندما يؤدي السياق إلى ظهورهما في نهاية الجملة.

= لموضوع الصامتين الساكنين، الا أنهما اكتفيا بذكر قاعدتي الاتباع والنقل ولم يتعرضا للمصوت بين بين.

(27) ابن الجزري : النشر في القراءات العشر، ج 2 ص 121، مطبعة مصطفى محمد بمصر، القاهرة، د.ت.

وهكذا يتبين أن التمثيل للتركيب المقطعي (هـ) /ص + م ق + ص + ص/ بالكلمات الثلاثية الساكنة العين الموقوف على لامها غير صحيح.

6.4. وننتقل بعد هذا الفحص إلى تصغير دابة وما يشبهها. ونورد في هذا الموضوع تفسيرين الأول لسيبويه والثاني لابن منظور. يقول سيبويه عند حديثه عن تصغير المضاعف الذي قد أدغم أحد الحرفين منه في الآخر. «وذلك قولك في مُدقٌّ : مُدَيْقٌ وفي أصمَّ : أصَيْمٌ ولا تغير الإدغام عن حاله كما أنك إذا كسرت مُدْقاً للجمع قلت : مداقٌ ولو كسرت أصم على عدة حروفه كما تكسر أجولا فتقول : أجاول، لقلت : أصامٌّ فإنما أجريت التحقير على ذلك وجاز أن يكون الحرف المدغم بعد الياء الساكنة كما كان ذلك بعد الألف التي في الجمع»[28]. والمثير للانتباه في هذا النص هو أن سيبويه يسوّي بين بنية أصام ومداق وبين أصيمّ ومديق ويعتبر أن الياء الساكنة في التصغير كألف المد في جمع التكسير وهكذا يكون تقطيع التصغير والجمع كالتالي :

mǔ / dǎq / qǔn

mǔ / dǎyq / qǔn

حيث يظهر أن التركيبين المقطعيين (1) /ص + م ط + ص/ و(2) /ص + م ق + ياء ساكنة + ص/ متساويان متوازيان، مما يجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأن المتتالية /....ay.../ في مثل مُدَيْقٌ تتحول إلى فتحة طويلة ممالة عندما تكون متلوة بصحيح مدغم. ويقوي هذا الاعتقاد ما هو معروف عن الطبيعة الصوتية لظاهرة الإمالة وعن أسباب ظهورها في العربية[29] كما يقويه إشارة سيبويه إلى أن التركيب (2) لا يتحقق إلا إذا كان الساكن الذي يسبق المدغم حرف لين إذ يقول في معرض حديثه عن النون الثقيلة والخفيفة في فعل الاثنين وفعل جميع النساء : «وليس حرف ساكن في هذه الصفة إلا بعد ألف أو حرف لين كالألف وذلك نحو : تمُوَدّ الثوبُ وتضربينّي، تريد المرأة. وتكون في ياء أصيمّ وليس مثل هذه الواو والياء لأن حركة ما قبلهن منهن كما أن

---

(28) سيبويه : نفسه ج 3 ص 418.

(29) انظر : النشر في القراءات العشر، ج 2 ص 30 وماييليها.

ما قبل الألف مفتوح وقد أجازوه في مثل ياء أصيم لأنه حرف لين»[30]. أما ابن منظور فيقول في معرض حديثه عن «ويب» و«تصغير دابة دويبّة الياء ساكنة، وفيها إشمام[31] من الكسر وكذلك ياء التصغير إذا جاء بعدها حرف مثقل في كل شيء»[32]. وهذا الوصف يمكن أن تستنتج منه نفس ما استنتجناه أعلاه من كلام ابن جني في موضوع طبيعة مصوتات الكلمات الثلاثية الساكنة العين في الأصل وهو أن العرب كانت تحرك ياء التصغير بحركة بين بين عندما تظهر قبل صامت مدغم. وعليه فالكتابة الصوتية لدويبة حسب ما يفهم من كلام ابن منظور هي :

dǔ/wǎ/yeb/bǎ/tǔn

والأصل في هذا المصوت بين بين الذي يظهر هنا هي حركة الباء الأولى المكسورة في الأصل والتي سكنت للإدغام فنقلت حركتها إلى الياء الساكنة قبلها وحولت إلى مصوت بين بين تجنبا للبس. ويتضح ذلك مرحلة من مراحل التحويل التي يقتضيها تصغير دابة :

فاعلـــة ← فويعِلة

دابـــة ← دويبِبَة * تحويل التصغير.

دويببـــة * ← دويبة تحويل الإدغام ونقل الحركة.

---

(30) سيبويه : نفسه، جَ 4، ص 525.

(31) لا يمكن أن يكون المراد بالإشمام في هذا النص انعدام الحركة أو التصويت لأنه لا سبيل إلى الإشمام بهذا المعنى حسب سيبويه في الفتح والكسر، وهو المراد هنا. بل هو منحصر في الضم «لأن الضمة من الواو فأنت تقدر أن تضم لسانك في أي موضع من الحروف شئت ثم تضم شفتيك... واشمامك للرؤية وليس بصوت للأذن» (الكتاب، ج 4، ص 171). والمراد إذن هو النطق «ببعض الحركة» أو الروم حسب البصريين. وقد حكى عن الكوفيين أنهم يسمون الإشمام روما والروم إشماما. يقول صاحب النشر : «ذكر نصر بن علي الشرازي في كتابه الموضح أن الكوفيين ومن تابعهم ذهبوا إلى أن الإشمام هو الصوت وهو الذي يسمع أنه عندهم بعض حركة ج 2 ص 121.

(32) ابن منظور : اللسان، ج 1، ص 370، دار صادر، بيروت، د.ت.

وهكذا يظهر أن التمثيل للبنية المقطعية (هـ) /ص + م ق + ص + ص/ بجزء من تصغير دابة أو ما يشبهها غير مستقيم سواء أخذنا بوصف سيبويه أو اعتمدنا ما قاله ابن منظور نقلا عن «تهذيب اللغة» ج 14 ص 77 للأزهري فالمقاطع المؤلفة لمذيق أو دويبة لا تخرج عن الأشكال المقطعية (أ) و(ب) و(جـ) و(د) التي ذكرناها في البداية وقد بحثنا في بنية العربية الفصحى عن ما يمكن أن نستشهد به على وجود الشكل (هـ) بعد أن بينا عدم صلاحية الأمثلة التي قدمها بعض اللغويين المحدثين على ذلك، فلم نجد ما يمكن اعتماده في هذا الباب. وعليه وجب حذف هذه البنية من لائحة الأشكال المقطعية الفصحى والاكتفاء بأربع أبنية فقط اثنتان منها مفتوحة واثنتان مقفولة.

1) **المفتوحـــــة :**

أ) / ص + م ق/ وهو مقطع قصير.

ب) /ص + م ط/ وهو مقطع طويل.

2) **المقفولـــــة :**

جـ) /ص + م ق + ص/ وهو مقطع قصير.

د) /ص + م ط + ص/ وهو مقطع طويل.

والسر في وجود هذا العدد المحدود من الأشكال المقطعية في الفصحى هو اقتصار هذه اللغة على نوعين من المصوتات فقط واستحالة الجمع، في كل رواتب السلسلة الكلامية، بين صامتين ساكنين مهما كان السياق الصوتي. وتتحقق هذه الأشكال المقطعية في إطار القواعد التالية :

ــ يبتدئ المقطع في الفصحى بحرف صامت (أو حرف لين) واحد سواء كان في صدر السلسلة الكلامية أو وسطها أو آخرها ولا يمكن أن يبتدئ بمصوت البتة.

ــ لا يمكن أن يتقدم المصوت (نواة المقطع) أكثر من صامت واحد، ولو في صدر الجملة، لأن العرب لا تبتدئ بصامت ساكن.

ــ يمكن للمصوت النواة أن يكون طويلا أو قصيرا سواء كان المقطع مفتوحا أو مقفولا.

ــ لا يتحقق المقطع المفتوح القصير في آخر الجملة إلا في بعض حالات الوقف الخاصة التي بيناها سابقا مع المصوت بين بين فقط.

ــ لا يتحقق المقطع المقفول الطويل إلا في آخر الجملة وفي وسط بعض العبارات من مثل مُداق.

المراجـــع العربيـــة

أبو العباس المبرد : المقتضب، 4 أجزاء، تحقيق محمد عبد الخالق عظيمة، عالم الكتب، بيروت، د.ت.

أبو الفتح عثمان بن جني : سرُّ صناعة الإعراب، تحقيق لجنة من الأساتذة، شركة ومطبعة مصطفى البابلي الحلبي وأولاده بمصر، 1954.

أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه : الكتاب، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1975.

ابن عصفور الإشبيلي : الممتع في التصريف، جزءان، تحقيق فخرالدين قباوة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1970.

إبراهيم أنيس : الأصوات اللغوية ط : 3، دار النهضة العربية بمصر، 1961.

ابن الجزري : النشر في القراءات العشر، جزءان، تحقيق أ.م. الضباع، مطبعة مصطفى محمد بمصر، القاهرة، د.ت.

تغريد السيد عنبر : دراسات صوتية، ج 1، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، القاهرة، 1980.

التهامي الراجي الهاشمي : توطئة لدراسة علم اللغة، دار النشر المغربية، 1977.

التهامي الراجي الهاشمي : الثنائيات اللسانية، دار النشر المغربية، 1981.

تمام حسان : مناهج البحث في اللغة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1956.

تمام حسان : اللغة العربية : معناها ومبناها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1973.

جورج مونان : مفاتيح الالسنية، ترجمة الطيب البكوش، منشورات الجديدة تونس، 1981.

جورج مونان : تاريخ علم اللغة منذ نشأتها حتى ق 20 ترجمة بدرالدين القاسم، مطبعة جامعة دمشق، 1972.

الجاحظ : البيان والتبيين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، د.ت.

داوود عبده : أبحاث في اللغة العربية، مكتبة لبنان، 1973.

عبد الصبور شاهين : علم اللغة العام، مؤسسة الرسالة، القاهرة، 1980.

عبد الصبور شاهين : المنهج الصوتي للبنية العربية، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1980.

دوسوسير : دروس في الألسنية العامة، تعريب صالح الكرمادي والطيب بكوش ومحمد عجينة. الدار العربية للكتاب، 1989.

رمضان عبد التواب : المدخل إلى علم اللغة، مكتبة الخانجي بالقاهرة، 1980.

ريمون طحان : الألسنية العربية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، د.ت.

عبد العلي الودغيري : المعجم العربي بالأندلس، دار المعارف الجديدة، الرباط، 1984.

عبد العلي الودغيري : قضايا المعجم العربي في كتابات ابن الطيب الشرقي، عكاظ، الرباط، 1989.

عبد القادر الفاسي : اللسانيات واللغة العربية، ج 1 و2، دار توبقال، الدارالبيضاء، 1985.

عبد القادر الفاسي : المعجم العربي، دار توبقال، الدارالبيضاء، 1986.

عبد القادر الفاسي : البناء الموازي، دار توبقال، الدارالبيضاء، 1990.

محمد غاليم : التوليد الدلالي في البلاغة والمعجم، دار توبقال، الدارالبيضاء، 1987.

إدريس السغروشني : مدخل للصواتة التوليدية، دار توبقال، الدارالبيضاء، 1987.

أحمد العلوي : الطبيعة والتمثال، سمير، الرباط، 1988.

كمال محمد بشر : علم اللغة العام : الأصوات، دار المعارف بمصر، 1973.

مبارك حنون : مدخل للسانيات سوسير، دار توبقال، الدارالبيضاء، 1987.

مبارك حنون : دروس في السيميائيات، دار توبقال، الدارالبيضاء، 1987.

ميشال زكريا : الألسنية، بيروت، 1980.

ميشال زكريا : الألسنية التوليدية والتحويلية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1982.

أحمد المتوكل : دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي، دار الثقافة، الدارالبيضاء، 1986.

أحمد المتوكل : الوظائف التداولية في اللغة العربية، دار الثقافة، الدارالبيضاء، 1985.

فؤاد زكريا : الجذور الفلسفية للبنائية، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الحولية الأولى، 1980.

المراجــــع الأجنبيـــة

E. Benveniste : Problèmes de linguistique générale. T : I 1966 et T : II 1971, Gallimard, Paris.

J. Cantineau : Etudes de linguistique arabe, Mémorial, Klincksieck, Paris, 1960.

J. Cantineau : Cours de phonétique arabe, Klincksieck, Paris, 1960.

R. Barthes : «Eléments de sémiologie» in communication n° 4, 1964.

N. Chomsky : Aspects de la théorie syntaxique, Seuil, Paris, 1971.

F. De Saussure : Cours de linguistique générale, Ed. annotée de T. De Mauro, Payothèque, Paris, 1975.

D. Cohen : Etude de linguistiques sémitique et arabe, Klincksieck, Paris, 1970.

F. Dell : Forme sonore du langage, Hermann, Paris, 1984.

J. Dubois et autre : Dictionnaire de linguistique , Larousse, Paris, 1973.

O. Ducrot et T. Todorov : Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, Seuil, Paris, 1971.

Encyclopédie de l'Islam, Ed. G.P. Maisonneuve et Larose S.A. Paris, 1975.

A. Fassi Fihri : Linguistique arabe : forme et interprétation Fac. des lettres, Rabat, 1982.

Ch. Ferguson : «The arabic Koine» in Language. V : 35, N° 4, 1959.

H. Fleisch : Esquisse d'une structure linguistique de l'arabe classique, U.St. Josephe, Beyrouth, 1956.

H. Fleisch : Traité de philologie arabe, Dar El Machreq, Beyrouth, T : I 1961, T : II 1979.

J. Fück : Arabiya, Trad. Deniseau, I. H.E., Paris, 1955.

A. Hilili : Linguistique moderne et langue arabe, Afrique-Orient, Rabat, 1991.

A. Hilili : Contribution à l'étude fonctionnelle de l'arabe, Thèse d'état, Paris III, 1987.

A. Hilili : Phonologie et morphologie de l'ancien fassi, Thèse de 3eC., Paris III, 1979.

W. Labov : Sociolinguistique, Trad. Kihen, Les éditions de minuit, Paris, 1976.

J. Lyons : Introduction à la linguistique théorique, Larousse, Paris, 1970.

J. Lyons : Sémantique linguistique, Larousse, Paris, 1980.

G. Malmberg : Les nouvelles tendances de la linguistique P.U.F. Paris, 1972.

A. Martinet : Economie des changements phonétiques, Franc Kc, Berne, 1955.

A. Martinet : Eléments de linguistique générale, 4e Ed. Armand Colin, Paris, 1980.

A. Martinet : Syntaxe générale, Armand Colin, Paris, 1985.

A. Martinet : évolution des langues et reconstruction, P.U.F. Paris, 1975.

J. Martinet : De la théorie linguistique à l'enseignement des langues, P.U.F. Paris, 1972.

G. Mounin : La linguistique au 20e siècle, P.U.F, Paris, 1975.

A. Moutawakil : Reflextion sur la théorie de la signification dans la pensée linguistique arabe, Fac des lettres, Rabat, 1982.

D. Maingueneau : Eléments de linguistique pour le texte littéraire, Bordas, Paris, 1986.

N.S. Troubetz Koy : Principes de phonologie, traduit par J. Cantineau Klincksieck, Paris, 1975.

B. Pottier : Comprendre la linguistique, Marabout U. Paris, 1975.

فهرس الموضوعات

- تقديم 3

تعاريف وقضايا عامة

- اللسانيات البنيوية 9
  - □ البنيوية تعريف وتحديد 9
  - □ اللسانيات : تعريف وتحديد 11
  - □ أسس لسانيات دوسوسير 13
- قضايا البحث اللهجي 30
- قضايا جمع وتقعيد اللغة 39

الدرس الصوتي الحديث

- الأصــوات 53
  - □ كيفية إحداث الأصوات الانسانية 53
  - □ الأصوات الصامتة والأصوات المصوتة 59
  - □ وصف أصوات اللغات الطبيعية 61
  - □ درجات انفتاح وصفات الأصوات عند نحاة العربية المتقدمين 68

الصــوتيــات

- الصوتيــات 73
  - □ الفونيم : تعريف وتحديد 73
  - □ النظام الصوتي الفصيح والنظام الصوتي الدارج 80
  - □ البنية المقطعية العربية 100
- • المراجع العربية 115
- • المراجع الأجنبية 118

هذا الكتاب

... يمكن ترتيب مواد هذا الكتاب في مجموعتين كبيرتين. تتألف الأولى من ثلاث دراسات في اللسانيات العامة، استعرض المؤلف في إحدى هذه الدراسات أهم مبادىء ومفاهيم اللسانيات البنيوية وقدم في الثانية أسس علمي الأصوات النطقي والصوتيات الوظيفية، وتعرض في الدراسة الثالثة لقضايا البحث اللهجي. وتتألف المجموعة الثانية من مواد هذا الكتاب من دراسات خاصة ببعض مواضيع اللسانيات العربية تناول المؤلف في إحداها قضية نشأة علم النحو وجمع وتقعيد العربية وقارن في الدراسة الثانية بين النظام الصوتي الفصيح والنظام الصوتي الدارج ووصف في الدراسة الأخيرة البنية المقطعية الفصحى...

مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء